كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلـة العلميـة

بَلَاغَةُ الرَّسُولِ ﴿ ﷺ ﴾
فِي
انْتِهَازِ الْفُرصَةِ

إعداد
د/ صلاح أحمد رمضان حسين جاد المولى
أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد السابع والثلاثون الجزء الأول ٢٠١٨م)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ لله الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، والصلاةُ والسلامُ على أفصح العرب لسانًا، وأوضحِهم بيانًا، وأعذبهم نطقًا، وأَسَدِّهم لفظًا، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طريق الصواب، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ،،،

فإنّ الله –جلّ وعزّ– لمّا وضع رسولَه موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه؛ اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها؛ ليباشر في لباسه مشاهد التبليغ وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف. (١)

ثم كلَّفه الحقُّ –تبارك وتعالى– بمهمة التبيين والتعليم، فقال: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٤٤]، وقال أيضاً: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [الجمعة: ٢]، وعن جابر بن عبد الله ﵁ أن النبي ﷺ قال: " **إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**» (٢)

ولا شك أن محمداً ﷺ أبلغُ داعية عرفته البشرية، وأعظمُ مُعَلِّمٍ مَلَكَ وسائل

(١) ينظر: غريب الحديث للخطابي ٦٤/١، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١٦٥/١، تحقيق: فؤاد علي منصور.

(٢) صحيح مسلم ١١٠٢/٢ حديث (١٤٧٨).

التعليم والبيان التي تناسب أحوال المخاطبين، إقناعاً وتأثيرا، وتقريرا وتمكينا، وتوضيحا وتبيينا.

وإن انتهاز الفرصة المواتية، وتوظيف الأحداث والمواقف واستثمارها لمن أقوى الأساليب التعليمية والتربوية التي تخاطب العقل والوجدان معاً، والتي تجمع بين المعاني المجردة والصور الحسية المشاهدة؛ فيتأكد المعنى ويتقرر في أذهان المخاطبين بطريقة بليغة تجمع بين التأثير والإقناع، والإفادة والإمتاع.

ومن هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة، وعنوانها: **(بلاغة الرسول ﷺ في انتهاز الفرصة)**؛ بهدف إبراز بلاغته ﷺ في توظيف مقومات البيئة المحيطة، واستثمار الأحداث والمواقف؛ لتوضيح المعاني وتقريرها وتثبيتها في أذهان المخاطبين، ولتحقيق أقصى درجات التواصل الفكري والوجداني الذي يحقق التأثير والإقناع دون تكلف أوشطط.

كما تهدف الدراسة إلى رصد صور انتهاز الفرصة في البيان النبوي، والتركيز على بيان المسلك البياني والأساليب المستخدمة في الربط بين الفرصة المنتهزة والمعنى المراد، وكيف حققت المعانى المقررة أهدافاً تربوية سامية، تسعى إلى إقرار منهج حياة، أو تقويم سلوك معوج.. ولا عجب في ذلك " فإنَّ هذا الفيض الروحي للكلمات هو الذي أحدث هذا الهدم في داخل النفس الجاهلية، وهو أيضا الذي أحدث هذا البناء الجديد والتكوين النقي لهذه النفس "[١].

وقد آثرت الدراسةُ اختيارَ مصطلح **(انتهاز الفرصة)** رغم ما يُوهم به ظاهره من إيحاءٍ لا يتناسب مع شرف البيان النبوي؛ إيماناً واقتناعاً بأصالة هذا

(١) قراءة في الأدب القديم، د/ محمد أبو موسى، ص ٢١٦.

المصطلح في التراث اللغوي والبلاغي، وتمسكاً بمصطلحات السلف، وهروباً من تبعية الحداثيين الزائفة ومصطلحاتهم الوافدة.. فقد أورد الجاحظ، وأبو هلال العسكري، وغيرهما، أنه " قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، **وانتهاز الفرصة**، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، **والمعرفة بمواضع الفرصة**." (١)

هذا.. وقد اقتضت طبيعة البحث أن تقسم خطته إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

فأما المقدمة: ففيها حديث عن أهمية الموضوع، ومنهجه، وخطته.

وأما التمهيد: فقد تضمن ثلاثة محاور:

١. انتهاز الفرصة بين الضابط اللغوي والمفهوم البلاغي
٢. انتهاز الفرصة بين الأثر البلاغي والتأثير الإبلاغي
٣. الخصائص البلاغية لانتهاز الفرصة في البيان النبوي

والمبحث الأول: **بلاغة الرسول ﷺ في توظيف عناصر البيئة**

ويشتمل على أربعة محاور:

١. بلاغته ﷺ في توظيف الجماد
٢. بلاغته ﷺ في توظيف الحيوان
٣. بلاغته ﷺ في توظيف الإنسان
٤. بلاغته ﷺ في توظيف النبات

والمبحث الثاني: **بلاغة الرسول ﷺ في توظيف الأحداث والمواقف والمناسبات**

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٢، وكتاب الصناعتين ١/١٦.

ويشتمل على محورين:

١. بلاغته ﷺ في توظيف الأحداث والمواقف الفردية.

٢. بلاغته ﷺ في توظيف الأحداث والمواقف الجماعية.

والمبحث الثالث: **بلاغة الرسول ﷺ في توظيف السؤال والحوار**

ويشتمل على محورين:

١. بلاغته ﷺ في توظيف السؤال

٢. بلاغته ﷺ في توظيف الحوار

والخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته.

والله أسأل أنَّ يجعل هذا الجهد في ميزان حسنات صاحبه، وموازيين حسنات القراء أجمعين، وأن يكون حجة لنا جميعًا لا حجة علينا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

ويشتمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول: انتهاز الفرصة بين الضابط اللغوي والمفهوم البلاغي

المحور الثاني: انتهاز الفرصة بين الأثر البلاغي والتأثير الإبلاغي

المحور الثالث: الخصائص البلاغية لانتهاز الفرصة في البيان النبوي

المحور الأول

انتهاز الفرصة بين الضابط اللغوي والمفهوم البلاغي

أولاً: **الدلالة اللغوية**.

وردت كلمة (انتهز) في معاجم اللغة بمعنى: السرعة والمبادرة في اغتنام الفرصة المواتية. ففي مقاييس اللغة لابن فارس:(نَهَزَ) النُّونُ وَالْهَاءُ وَالزَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ وَنُهُوضٍ وَتَحْرِيكِ الشَّيْءِ. فَالنَّهْزُ: النُّهُوضُ لِتَنَاوُلِ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ انْتِهَازُ الْفُرْصَةِ. وَالنُّهْزَةُ: كُلُّ مَا أَمْكَنَكَ انْتِهَازُهُ يُقَالُ قَدْ أَعْرَضَ فَانْتَهِزْ. وَنَهَزَتِ النَّاقَةُ بِصَدْرِهَا: نَهَضَتْ لِلسَّيْرِ. وَنَهَزَتِ الدَّابَّةُ بِرَأْسِهَا: دَفَعَتْ عَنْ نَفْسِهَا... والمُنَاهَزَةُ: المُبادَرَةُ. يُقَالُ: نَاهَزْتُ الصيدَ فَقَبَضْتُ عَلَيْهِ قَبْلَ إِفلاته. وانْتَهَزَها وناهَزَها: تَنَاوَلَهَا مِنْ قُرْب وَبَادَرَهَا وَاغْتَنَمَهَا. (١)

و(الْفُرْصَةُ): النُّهْزَةُ. وَقَدْ فَرَصَها فَرْصاً وافْتَرَصَها وتَفَرَّصها: أَصابَها، وَقَدِ افْتَرَصْتُ وانتَهَزْتُ. وأَفْرَصَتْكَ الفُرْصةُ: أَمْكَنَتْكَ. وأَفْرَصتْني الفُرْصةُ أي أَمكَنَتْني، وافْتَرَصْتُها: اغتَنَمْتُها يُقَالُ: وَجَدَ فُلَانٌ فُرْصَةً وَانْتَهَزَ فُلَانٌ الْفُرْصَةَ أَيِ اغْتَنَمَهَا وَفَازَ بِهَا. وَ(افْتَرَصَهَا) أَيْضًا اغْتَنَمَهَا. (٢)

ثانياً: **المفهوم البلاغي**

أورد الجاحظ، وأبو هلال العسكري، وغيرهما من علماء البلاغة الأوائل عدة تعريفات لمفهوم البلاغة، وعَدُّوا **(انتهاز الفرصة والمعرفة بمواضعها)** أحد مفاهيم البلاغة. فقد ذكر الجاحظ أنه " قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، **وانتهاز الفرصة**، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس ٣٦٣/٥ (ن هـ ز)، ولسان العرب لابن منظور ٤٢١/٥ (ن هـ ز).

(٢) لسان العرب ٦٤/٧ (ف ر ص)، ومختار الصحاح للرازي ٢٣٧/١ (ف ر ص).

البصر بالحجة، **والمعرفة بمواضع الفرصة.**" (١)

وإذا كان الجاحظ وأبو هلال العسكري لم يضعا تعريفا ضابطاً لمصطلح **(انتهاز الفرصة)** إلا أن أبا هلال العسكري أورد عدة أمثلة لانتهاز الفرصة؛ والمستقرئ لها يتبين أنه ضيَّق مفهومها، حيث قصرها على صورة واحدة من صور انتهاز الفرصة وهي ما عُرِفَت عند البلاغيين المتأخرين بـ **(الأسلوب الحكيم)** أو **(الأجوبة المسكتة)**، بل إن الشواهد التي أوردها تدور حول نوع واحد من أنواع الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب.

قال أبو هلال العسكري: " **وأما انتهاز الفرصة فمثاله أن بعض الكُتَّاب لقى أبا العيناء في السّحر، فجعل يتعجّب من بكوره؛ فقال: أتشاركني في الفعل وتنفرد بالتعجّب.**

وقالت له قينة: هب لي خاتمك أذكرك به. قال: اذكريني بالمنع.

وقيل له: لا تعجل فإنّ العجل من عمل الشيطان. فقال: لو كانت من عمل الشيطان لما قال موسى عليه السلام: وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى." (٢)

فهذه الأمثلة وغيرها التي أوردها صاحب الصناعتين فيها انتهاز للفرصة بمعناها اللغوي، وهو المبادرة والمسارعة إلى الجواب المُفحم أو المُسْكت.

وقد استخدم الزمخشري أيضاً هذا المصطلح عند تفسيره لقول الحق تبارك وتعالى في قصة يوسف عليه السلام مع صاحبيه في السجن: ﴿**وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قالَ لا يَأْتِيكُما**

(١) البيان والتبيين ٩٢/١، وكتاب الصناعتين ١٦/١.

(٢) كتاب الصناعتين ١٩/١.

طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ . وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ . يَا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . يَا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾ [يوسف: ٣٦-٤١].

قال الزمخشري: " لما استعبراه ووصفاه بالإحسان، (افترص ذلك) [(١)] فوصل به وصَفَ نفسه بما هو فوق علم العلماء، وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما، ويقول: اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت، فيجدانه كما أخبرهما، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما، ويقبح إليهما الشرك بالله، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة، إذا استفتاه واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولا، ويدعوه

---

(١) أي: اتخذه فرصة وانتهزه؛ لدعوتهما إلى الله، فمهد لذلك بتعريفهما بنفسه، وتشويقهما إلى حديثه، وبيان نعمة الله على أهل التوحيد، ثم بين لهما أن الشرك بالله سبب لكل شر، وأن توحيد الله سبب لكل خير.. وبعد هذه التمهيدات جرد الدعوة إلى التوحيد بأسلوب إقامة الحجة على وحدانية الله، ثم فسر لكل واحد منهما رؤياه في عبارة موجزة صريحة واضحة لا لبس فيها ولاغموض.

إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استفتى فيه ثم يفتيه بعد ذلك " (١)

أما انتهاز الفرصة الذي نقصده هنا، فمفهومه أوسع وأشمل.. ويمكن القول بأنه: المبادرة إلى توظيف واستثمار المعطيات المحيطة، والأحداث والمواقف والمناسبات، وغيرها؛ للوصول بها إلى تحقيق الغرض الذي يريده المتكلم من الكلام، وإلى تقرير المعاني وتأكيدها وتثبيتها في أذهان المخاطبين، بلغة بيانية بليغة تناسب أحوال المخاطبين، وتناسب المعنى المراد تأكيده أو تقريره.

فانتهاز الفرصة إذن مبحث أصيل من مباحث (مراعاة المطابقة)، وصورة من صور الخطاب التربوي التعليمي الذي يجمع بين الإفادة والتأثير، وبين الإقناع والإمتاع.. وهو أيضاً مهارة ووسيلة من وسائل الاتصال الفعال بين المتكلم والمتلقي.

ومن الغبن وقصر النظر أن نضيّق مفهوم (انتهاز الفرصة) في صورة واحدة كما صنع العسكري، والأولى أن نوسع في مفهومه لا سيما وأن ابن فارس أكد ذلك فقال: " وَالنُّهْزَةُ: كُلُّ مَا أَمْكَنَكَ انْتِهَازُهُ " (٢)

---

(١) الكشاف للزمخشري، ٤٦٩/٢-٤٧٠

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ٣٦٣/٥ (ن هـ ز).

المحور الثاني

انتهاز الفرصة بين الأثر البلاغي والتأثير الإبلاغي

بعث الله تعالى محمداً ﷺ معلماً ومزكياً ومبشراً ونذيراً، فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [الجمعة: ٢]، وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: " **إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**» (١)

فالحكمة من بعث النبي ﷺ هي أن يُعَلِّم الناس أمور دينهم؛ وهذا التعليم يقتضي أن يستخدم ﷺ جملة من الأساليب التي تحمل مضموناً تربوياً ذا طابع توجيهي وإرشادي؛ بما يحقق المصلحة العامة للمخاطب في الدنيا والآخرة، ويسهم في بناء شخصية سوية ومتوازنة. (٢)

ولا شك أن انتهاز الفرصة المواتية، وتوظيف الأحداث والمواقف واستثمارها من أقوى الأساليب التعليمية والتربوية التي تخاطب العقل والوجدان معاً، والتي تجمع بين المعاني المجردة والصور الحسية المشاهدة؛ فيتأكد المعنى ويتقرر في أذهان المخاطبين بطريقة مؤثرة تجمع بين الإقناع والإمتاع، وبين الإفادة والإبداع.

ويزداد الأمر أهمية وقيمة عندما يتعلق بالشرع والدين؛ لما في ذلك من تحقيق غايتين معاً وهما: عمارة الدنيا والفلاح أو الفوز في الآخرة، ولما في ذلك أيضاً من دلالة على رسالة مقدسة موجهة إلى كافة الناس، وهذا ما ضاعف من

---

(١) صحيح مسلم ١١٠٢/٢ حديث (١٤٧٨).

(٢) ينظر: جودة الخطاب التربوي في السنة النبوية، د/محمود خليل أبو دف، ص:٥ ، بحث مقدم لمؤتمر المعلم الفلسطيني، جامعة الأقصى، غزة، كلية التربية عام٢٠٠٨م.

بلاغة انتهاز الفرصة في بيان النبي ﷺ وزاد من تأثر الصحابة ﷺ بهذه الوسيلة التعليمية التربوية التي تعلمهم أمور دينهم ودنياهم.

وإذا كان انتهازُ الفرصة صورةً من صور (مراعاة المطابقة)، وخطاباً تربوياً هادفاً روعي فيه أحوال النفس عند المخاطبين؛ فإنه أيضاً طريقة وأسلوب بياني ينفذ ببراعة إلى زوايا الموقف التي ربما ضعف الضوء فيها، أو غفل المرء عن النظر إليها، وإلى أعماق النفس الإنسانية التي يخاطبها، فيصبح حديث البليغ عندئذ من باب حديث الروح للروح، وهمسات النفس للنفس، فتصير الكلمة جزءاً من بناء الحياة.. والمتكلم الحاذق تظهر بلاغته وبراعته حين يكون قادراً " على صياغة كلم اللغة، صياغة بصيرة واعية، تصف كل خاطرة من خواطر نفسه، وتفصح عن كل فكرة تومض في كيانه، أو شعور يختلج في مطاويه، وعبقرية اللغة تكمن في مرونتها، وطواعيتها وإفادتها دقيق المعاني، بوجوه وفنون الصياغة، فتصف بهيئة الكلمة وتشير بخصوصية التركيب" (١)

ولا ينكر أحد أن النبي ﷺ داعية بارع وناجح جاهد بإخلاص في سبيل رسالته وقضيته التي اعتقد صدقها ودعا الناس إليها، ولهذا جعلها شغله الشاغل، وهمه المقعد المقيم، فهو يتحدث عنها على المنبر، وفي حلقات الاجتماع، وفي الطريق بين أصحابه إذا سار، ثم هو يستغل كل سانحة وخاطرة ليتخذها تكأة لموضوعه، وينتهز كل حادثة ليعلق عليها بما يحقق هدفه مستعيناً بشتى المؤثرات التي تجعل ذلك المشهد أو تلك الحادثة أكثر تأثيراً ، وأشد نفاذا، وأدق هدفاً. (٢)

---

(١) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبوموسى، ص:٧٧

(٢) ينظر: البيان النبوي، د/ محمد رجب البيومي، ص: ١٨٠

المحور الثالث

الخصائص البلاغية لانتهاز الفرصة في البيان النبوي

إذا كان التبيين هو المهمة الرئيسة من بعثة الرسول ﷺ ، كما قال تعالى:﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]؛ فإن السمة الغالبة على هذا البيان النبوي هي الوضوح والجلاء في العبارة لفظاً وتركيباً ومضموناً. قال الخطابي: " إنّ الله جلّ وعزّ لمّا وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه، اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها، ليباشر في لباسه مشاهد التبليغ وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف " (١)

وإذا كان انتهاز الفرصة وتوظيف الأحداث والمواقف يأتي في مقدمة الأساليب البيانية التي استخدمها الرسول ﷺ في تقرير المعاني وتأكيدها وتوضيحها وتثبيتها في أذهان المخاطبين؛ فإنه بجانب ذلك قد اتسم بعدة خصائص يمكن إيجازها في الآتي:

أولاً: **تصوير المعاني الذهنية في صورة حسية مشاهدة**، ولا يخفى أن إشراك الحس مع العقل في إدراك المعاني عن طريق التمثيل؛ يؤثر في النفس، ويوجب لها أُنْسَاً بالمعنى، وتأكيداً، وتقريراً، وتوضيحاً، وتثبيتاً له في الذهن، كما أن المشاهدة تُؤثِّر في النفوس مع العلم بصدق الخبر.. يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني: " إن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها

(١) غريب الحديث للخطابي ٦٤/١، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، والمزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١٦٥/١، تحقيق: فؤاد علي منصور.

مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفاً، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفاً.... وإن كان وعظاً، كان أشْفَى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزَّجر، وأجدر بأن يُجلِّيَ الغَيَاية، ويُبصِّر الغاية، ويُبرئ العليل، ويَشْفِي الغليل " (١)

وتتجلي هذه الخاصية في كثير من شواهد انتهاز الفرصة التي وردت في البيان النبوي، تأمل ما ورد " **عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ** " (٢).

وانظر كيف صور المعنى الغيبي وهو (رؤية الله ﷻ يوم القيامة) بأمر حسي مشاهد أمام أعينهم، وانظر كيف أثر التمثيل في نفوسهم، وكيف قرر المعنى(وهو وضوح الرؤية) وأكده تأكيداً واضحاً لا شك فيه.

ومثله أيضاً ماورد " **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الوَرَقُ، فَقَالَ: «إِنَّ الحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ العَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»** (٣)

وتأمل كيف استطاع البليغ ﷺ أن يصور أثر الذكر في محو الذنوب وإسقاطها عن العبد بوسيلة بيانية قربت المعنى وقررته وثبتته في أذهان

(١) أسرار البلاغة، ص:١١٥-١١٦

(٢) صحيح البخاري ١٣٩/٦ حديث (٤٨٥١)

(٣) سنن الترمذي ٤٣٤/٥ حديث (٣٥٣٣).. حسنه الألباني.

المخاطبين فصار صورة منقوشة في الذاكرة تستعصي على النسيان.

وانظر كيف قرر وصور رحمة الله الواسعة بعباده، وهو أمر معنوي في صورة حسية تقريبية مشاهدة لا مزيد عليها في الوضوح والبيان ، وذلك فيما ورد " **عَنْ عُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ، تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»** [1].

ثانياً: **البراعة والتلطف في الربط بين الفرصة المُنْتَهَزَة والمعنى المراد تأكيده**.. وقد سلك الرسول ﷺ في ذلك مسلكاً بيانيا حقق عدة أغراض أسلوبية وفنية تمثلت في الآتي:

١. التمهيد والتوطئة للمعنى المراد تقريره، وذلك من خلال استثارة ذهن المخاطب عن طريق استخدام أساليب التشويق، واستخدام وسائل التنبيه ولفت النظر كالنداء والاستفهام وغيرهما، وكذلك من خلال الجمع بين البيان الفعلي المتمثل في الحركات والإشارات وبين البيان القولي.

٢. تصعيد المعنى والتدرج به، وإعداد المخاطب نفسياً، وتهيئته لتلقي المعنى المراد تقريره وتثبيته أتم تثبيت. ومن خصائص صنعته ﷺ تصعيد وسائل التهيئة مع المعاني المهمة.

وهذه الخاصية تكاد تطرد في شواهد انتهاز الفرصة في البيان النبوي، وهذا

---

(١) صحيح البخاري ٨/٨ حديث (٥٩٩٩)، وصحيح مسلم ٢١٠٩/٤ حديث (٢٧٥٤).. واللفظ لمسلمٍ.

يدل على أن خطابَ النبي ﷺ خطابٌ تربويٌ تعليميٌ هادفٌ يملك السيطرة على قلوب المخاطبين، والتحكم الكامل في عقولهم، من خلال طرقه وأساليبه البيانية التي تثير أشواق المتعلمين وتبعث فيهم رغبة قوية في التعلم والفهم والإدراك.

فهو خطاب يجمع بين ثلاثية الإبداع: (معبرٌ، وموصلٌ، ومؤثرٌ)، " **مُعَبِّرٌ:** لأنه عربي قرشي بليغ وفصيح... **مُوَصِّلٌ:** لأن رسالته تصل إلى المخاطب بلغة مدروسة ومفهومة... **مُؤَثِّرٌ:** لأن تعبيره الوجداني يحرك نوازع المتلقي ويؤثر في أحاسيسه، ومستويات الانفعال لديه، ومؤثر كذلك لأن تعبيره الفكري يقنع عقل المتلقي بحجته ومنطقه وأدلته " (١).

تأمل هذه البراعة في الربط بين الفرصة المنتهزة والمعنى المراد تقريره، فيما رواه مسلم " **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: « فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»** (٢)

وانظر كيف مهد للمعنى، وكيف هيأ المخاطبين وشد انتباههم من خلال عدة وسائل بيانية وتعليمية، تأمل وصف الراوي لفعل الرسول ﷺ : **(فتناول الجدي الأسك الميت)**، ثم تأمل دلالة الاستفهام التقريري تسجيلاً عليهم، وزيادة في

---

(١) الخطاب النبوي خريطة البيان العربي، دراسة في اللسانيات النفسية والاجتماعية، د/ غريب محمد عيد، ص: ٤٨، ط/دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١ عام٢٠١٥م.

(٢) صحيح مسلم ٤/٢٢٧٢ حديث (٢٩٥٧).

تهيئتهم لتلقي المعنى المراد: **(أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟)**، ثم تأمل الترقي والتدرج في تصعيد المعنى أيضاً من خلال الاستفهام المتكرر الذي يضاعف في تقرير معنى الهوان: **(أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟)**، أي: بدون ثمن.. ولاحظ تجاوب المخاطبين من خلال جوابهم على استفهامات الرسول ﷺ ، وعندئذ يربط البليغ ﷺ بين الفرصة المنتهزة وبين المعنى الذي مهد له؛ ليقرر الفكرة في أذهان المخاطبين، فيقول في عبارة مؤكدة : **(فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ)**.

ثالثاً: التناسب والتلاؤم بين المعنى المراد تقريره، وبين الفرصة المُنْتَهَزة.. وهذه الخصوصية تطرد وتستوعب كل شواهد هذا الباب، وسأكتفي بشاهد واحدٍ منها.. فعندما أراد الرسول ﷺ بيان أثر الوضوء والصلوات الخمس في محو الخطايا والذنوب؛ مثّل ووضّح هذا المعنى من خلال الربط بصورة حسية مناسبة تماماً، وهي تساقط ورق الغصن اليابس إثر هزه، فقد روى أحمد في مسنده " **عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ فَقَالَ: " يَا سَلْمَانُ: أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ " قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ: " إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ "، وَقَالَ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}** [هود: ١١٤] " [١].

([١]) مسند الإمام أحمد ٣٩/١١١ حديث (٢٣٧٠٧).

إن التماس البليغ ﷺ لغصنٍ يابسٍ وهزِّه حتى تساقطت أوراقه، يتناسب ويتلاءم مع المعنى المراد تقريره وتأكيده وهو بيان أثر الوضوء والصلوات الخمس في محو الخطايا والذنوب.. وهكذا في كل صور انتهاز الفرصة تجد تناسباً قوياً يجمع بين صورتين من صور الإبانة عن المعنى، صورة محسوسة مشاهدة، وصورة ملفوظة مقررة.

رابعاً: **تنوع الأساليب وتعددها، تبعاً لأحوال المخاطبين، وتبعاً لأهمية المعنى المراد تقريره**.. وهذه الخاصية وإن كانت عامة في بيان النبي ﷺ إلا أنها تتجلى بوضوح في شواهد هذا الباب، حيث نراه ﷺ يحرص على توظيف الأسلوب البلاغي الذي يناسب المعنى، ويراعي أحوال المخاطبين، فتعلو درجات التأكيد في الأسلوب تبعاً لغرابة المعنى أو وضوحه، وتبعاً لأحوال المخاطبين، وترتفع نبرة الغضب لله والترهيب عندما ترتكب الأخطاء التي تخالف منهج الإسلام.

ففي سياق الزجر والنهي عن الشفاعة في الحدود تعلو النبرة، ويقوى الأسلوب، ويتأكد، تبعاً لخطورة المعنى وأهميته.. تأمل ما ورد " **عَنْ عَائِشَةَ، ﵂: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمُ المَرْأَةُ المَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا»** [1]

---

(١) صحيح البخاري ١٦٠/٨ حديث (٦٧٨٨)، وصحيح مسلم ١٣١٥/٣ حديث (١٦٨٨).. واللفظ للبخاري.

وكان من الممكن أن يكتفي الرسول ﷺ في الرّد على أُسَامَة بْن زَيْدٍ بالاستفهام الإنكاري التوبيخي: **(أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟)**، وهذا الأسلوب كافٍ في الزجر والنهي عن الشفاعة في الحدود لا سيما إذا رُفع الأمر إلى الحاكم وصار الحدُّ حقاً لله؛ لكنّ الرسول ﷺ أراد أن ينتهز هذه الفرصة المواتية، وأن يستثمر هذا الحدث؛ ليعلّم الناس جميعاً خطورة الشفاعة في الحدود؛ لما يترتب على ذلك من محاباة وضياع للحقوق، وتفريق بين الناس يفضي إلى الكراهية وهلاك المجتمع والأمم؛ فوظف الأساليب التي تناسب هذا المعنى.

لاحظ هذا الحركة الفعلية **(قَامَ فَخَطَبَ)** وهذا الفعل له دلالة مقصودة؛ أولها: التفخيم والتعظيم لحدود الله، وثانيها: نقل التوجيه والتحذير من الخصوصية الفردية لشخصٍ واحدٍ إلى الناس جميعاً؛ فيبلغ النهي للعامة حتى لا يجترئ أحد على تعطيل حدود الله مهما كان شرفه ومنزلته. ثم لاحظ هذا النداء العام المُهيّئ والمُشوق لما سيلقيه عليهم: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)**، ثم أتبعه بجملة مُعلّلةٍ وموضحة لخطورة الشفاعة في الحدود على المجتمع، والتفريق بين الناس في هذا الأمر على أساس الشرف والضعف، فقال: **(إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ)**.. وقد صاغ ﷺ هذه الجملة بأسلوب القصر الادعائي؛ مبالغة في بيان شدة خطر الشفاعة في الحدود لبعض الناس دون بعض؛ لما يترتب على ذلك من الهلاك والضلال.

ويُصَعّد الرسول ﷺ من التعظيم والتفخيم لإقامة حدود الله حتى لا يجترئ أحدٌ على تعطيلها، ويؤسس لمبدأ المساواة بين الجميع، فيقول: **(وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا)**.. تأمل دلالة القسم **(وَايْمُ اللَّهِ)**

وما يدل عليه من خطورة الأمر المقسم عليه تبعاً لعظم المقسم به، ولاحظ ضرب المثل بـ (**فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ**)؛ لِأَنَّهَا أَعَزُّ أَهْلِهِ عنده.. فهذه الأساليب ناسبت المعنى المراد تأكيده وتمكينه في الأذهان، وراعت أحوال المخاطبين ونفسياتهم، وهذا سمت مطرد في أحاديث انتهاز الفرصة وفي غيرها.

خامساً: (**انتهاز الفرصة**) **وسيلة تربوية وتعليمية ناجعة**؛ لما يحققه هذا المسلك من توضيح المعاني أو تقريرها وتأكيدها، ولما يحققه من تأثير وإقناع في نفوس المخاطبين، ولما يحققه أيضاً من أبعاد معرفية وتربوية تتعلق بأمور الدين والدنيا، فتوقظ الوعي، وتزيد الفهم، وتنشط الفكر، وتصحح المفاهيم والمعتقدات الخاطئة.. وإذا كانت البلاغة معنيَّة بإنهاء المعاني إلى القلوب؛ فإن انتهاز الفرصة من أبلغ الوسائل التي تعين على ذلك.**سادساً**: (**انتهاز الفرصة**) **وسيلة لتقويم الأخطاء وتصحيح المعتقدات**..ومن شواهد ذلك ما رواه البخاري " **عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ النَّاسُ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللَّهَ»** (١).

ومنه أيضاً ما رواه البخاري ومسلم " **عَنْ عَائِشَةَ، ﵂: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمُ المَرْأَةُ المَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ**

---

(١) صحيح البخاري ٣٤/٢ حديث (١٠٤٣).

أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا» (١)

ومن شواهده كذلك ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسْدٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَةٍ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: " مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ، ثَلاَثًا** " (٢).

والداعية الناجح هو الذي يغتنم الفرص لتقويم الأخطاء وتصحيح المعتقدات، واللافت للنظر في هذه الخصوصية أن الوسائل البيانية المستخدمة اختلفت وتنوعت قلة وكثرة حسب نوع الخطأ وخطورته، فإذا كان الخطأ كبيراً أو عاما فإننا نجد البليغ ﷺ يضاعف من استخدام وسائل البيان الفعلي والقولي التي تنهض نهوضاً واضحاً في بيان خطورة هذا الخطأ أو المعتقد، والتحذير منه.

سابعاً: **السرعة والمبادرة في انتهاز الفرصة المواتية**.. وهذا يدل على حضور ذهنه ﷺ ، وسرعة بديهته، وإخلاصه لدعوته، وحرصه على التأثير في

---

(١) صحيح البخاري ١٦٠/٨ حديث (٦٧٨٨)، وصحيح مسلم ١٣١٥/٣ حديث (١٦٨٨).. واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح البخاري ٧٠/٩ حديث (٧١٧٤)، وصحيح مسلم ١٤٦٣/٣ حديث (١٨٣٢).. واللفظ للبخاري.

المخاطبين.. بل إن الرسول ﷺ كان يصنع الفرصة لتعليمهم وتقرير الصورة في أذهانهم، ومن ذلك ما رواه أحمد في مسنده " **عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ فَقَالَ: " يَا سَلْمَانُ: أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ " قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ: " إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ "، وَقَالَ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}** [هود: ١١٤] " (١).

ولا شك أن السرعة والمبادرة في اغتنام الفرص وتوظيفها من صفات الداعية الناجح، والبليغ الذكي الذي يعرف أحوال المخاطبين؛ ولهذا " قال علي رضي الله عنه: انتهزوا الفرصة فإنها تمرّ مرّ السحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عين" (٢).

ثامناً: **تنوع مجالاتها في البيان النبوي**... فتارة تكون الفرصة باصطناع حدث أو موقف من جانبه ﷺ ابتداءً، وتارة تكون موقفاً أو مناسبةً وقعت عَرَضاً، وتارة تكون بالنظر في أشياء ساكنة صامتة لا تعلق لها بموقف أوحدث، وتارة تكون في السؤال والحوار، وغير ذلك من أنواع الفرص ومجالاتها.

وسوف يتكشف في الجانب التطبيقي من البحث مزيد من الخصائص البلاغية لانتهاز الفرصة في البيان النبوي.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٩/١١١ حديث (٢٣٧٠٧).

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ١/٩٠

المبحث الأول

بلاغة الرسول ﷺ في توظيف عناصر البيئة

ويشتمل على أربعة محاور :

المحــــور الأول: بلاغته ﷺ في توظيف الجمــاد

المحـور الثانـي: بلاغته ﷺ في توظيف الحيوان

المحـور الثالث: بلاغته ﷺ في توظيف الإنسان

المحـور الرابع: بلاغته ﷺ في توظيف النبـات

مدخل :

استفاد الرسول ﷺ من عناصر البيئة المحيطة، فوظفها في تبليغ دعوته السامية، وفي تأكيد المعاني المرادة، أو تقريرها وتوضيحها، وذلك من خلال الربط والموازنة بين هذه المعطيات البيئية وبين القيم المعرفية والتربوية التي حرص الرسول ﷺ على غرسها بطريقة مؤثرة في نفوس المخاطبين؛ لما لها من خصوصية دينية وتربوية.

وقد تنوعت معطيات البيئة التي استغلها الرسول ﷺ فشملت: الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد. وتنوعت كذلك المعاني المرادة تبعا لتناسبها مع العنصر الذي تم توظيفه وانتهازه في الربط والموازنة، وصاحب ذلك براعة ودقة في اختيار الأسلوب البلاغي الملائم للمعنى المراد، وفي طريقة الأداء.

وسوف نتعرف في الصفحات القادمة-بإذن الله- على أهم عناصر البيئة التي تم توظيفها، وكيف ربط الرسول ﷺ بينها وبين المعاني المرادة ربطاً حقق الإفادة والإمتاع في آنٍ واحد.

المحور الأول

بلاغته ﷺ في توظيف الجماد

لعلَّ أوَّلَ ما يلفت نظر القارئ للبيان النبوي، كثرةُ انتهاز النبي ﷺ لأنواع الجمادات وتوظيفها في توضيح المعاني وتقريرها في نفوس المخاطبين، وهذا راجع–فيما أرى– إلى تنوع صور الجمادات في البيئة العربية المفتوحة آنذاك، فضلا عما لها من خصوصية وتناسب مسوغ للربط بينها وبين المعاني المرادة.. وقد تنوعت صور الجمادات، فجاء منها: القمر، والشمس، والمطر، والحصى، وحلة من حرير، والجبل، والخاتم، والقبر، وغيرها.. وقد وظفها الرسول ﷺ توظيفاً مناسبا أثَّر في نفوس المخاطبين، وضاعف من اقتناعهم بالفكرة وتجلية المعنى المراد.

وقد رأيت من تمام الفائدة والمناسبة أن أضع عنوانا للمعنى المراد، والغرض المقصود من انتهاز الفرصة، وأجعله أصلاً رئيساً يدور حوله تحليل بلاغة الحديث؛ ذلك أن الملابسات التي صاحبت المعنى من توظيفٍ وانتهاز للفرص والمعطيات، واختيارٍ لأسلوبٍ دون أسلوب، وتنوعٍ في طريقة الأداء؛ إنما جاءت لخدمة المعنى وتوضيحه وتقريره في الأذهان. أما التقسيم باعتبار أنواع الفرص المنتهزة أو الأدوات والوسائل التي بنيت عليها الفرص المنتهزة، مثل: القمر، والشمس، والمطر، ونحو ذلك؛ فلا يترتب عليه كبير فائدة تناسب طبيعة الدراسة البلاغية.

تأكيد رؤية الله تعالى في الآخرة.[1]

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَةً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَرَ إِلَى القَمَرِ لَيْلَةً أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ: {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ}** [ق: ٣٩] "[2].

العرب أهلُ وَبَرٍ، صحونهم البوادي، وسقوفهم السماء، فلا يحول بين رؤيتهم القمر حائل لاسيما ليلة البدر والتمام.. وبينما رسول الله ﷺ يجلس مع أصحابه في (**لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ**) رأى القمر واضحا منيراً لا تخفى رؤيته على أحد؛ فأراد

(١) قَالَ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ –: اعْلَمْ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ قَاطِبَةً أَنَّ رُؤْيَةَ اللَّهِ تَعَالَى مُمْكِنَةٌ غَيْرُ مُسْتَحِيلَةٍ عَقْلًا، وَأَجْمَعُوا أَيْضًا عَلَى وُقُوعِهَا فِي الْآخِرَةِ أَيْ نَقْلًا وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ اللَّهَ تَعَالَى دُونَ الْكَافِرِينَ، وَزَعَمَتْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْخَوَارِجِ وَبَعْضِ الْمُرْجِئَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنَّ رُؤْيَتَهُ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا، وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ خَطَأٌ صَرِيحٌ وَجَهْلٌ قَبِيحٌ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ أَدِلَّةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ عَلَى إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَوَاهَا نَحْوُ عِشْرِينَ صَحَابِيًّا – رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ – عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– وَآيَاتُ الْقُرْآنِ فِيهَا مَشْهُورَةٌ، وَاعْتِرَاضَاتُ الْمُبْتَدِعَةِ عَلَيْهَا لَهَا أَجْوِبَةٌ مَسْطُورَةٌ فِي كُتُبِ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ.(**راجع: شرح النووي على مسلم ١٥/٣، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للملا القاري ٣٦٠١/٩)**

(٢) صحيح البخاري ١٣٩/٦ حديث (٤٨٥١)، وصحيح مسلم ٤٣٩/١ حديث (٦٣٣).. ومعنى(تضامون): بِالتَّشْدِيدِ مِنَ الضَّمِّ، أَيْ: لَا يَنْضَمُّ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي طَلَبِ رُؤْيَتِهِ؛ لِإِشْكَالِهِ وَخَفَائِهِ كَمَا يَفْعَلُونَ فِي الْهِلَالِ، أَوْ لَا يَضُمُّكُمْ شَيْءٌ دُونَهُ فَيَحُولُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا، وَبِالتَّخْفِيفِ مِنَ الضَّيْمِ وهو الظلم، أَيْ: لَا يَنَالُكُمْ ضَيْمٌ فِي رُؤْيَتِهِ، فَيَرَاهُ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ، بَلْ يَسْتَوُونَ فِيهَا. (**ينظر: مرقاة المفاتيح ٣٥٢٨/٨**).

ﷺ أن ينتهز هذه الفرصة المواتية، وأن يوظف هذا الوضوح والظهور للقمر في تأكيد رؤية الله ﷻ يوم القيامة.. فكيف كانت بلاغته في ذلك؟

أولّ ما يلقاك من روعة فصاحته وبلاغته وجمال إلقائه وتعبيره ﷺ أنه أراد أن يوجه أنظار الصحابة نحو القمر، من خلال هذه الحركة الجسدية، حتى يربط بين الطرفين ربطاً يستحضر فيه الصحابة وجه الشبه المراد، ويشاركوه الصورة، تأمل قول الراوي: **(فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ)**؛ ولما توجهت أنظار الصحابة نحو القمر ورأوا وضوحه وظهوره الجليِّ الذي لا يخفي على أحد في **(لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ)**؛ بادر ﷺ بانتهاز الفرصة وعقَّب على الفور: **(فَقَالَ: إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ)**.

فقد أكد ﷺ على رؤية المؤمنين لله ﷻ يوم القيامة تأكيداً بليغاً من عدة وجوه:

أولاً: تصوير الأمر الغيبي وهو (رؤية الله ﷻ يوم القيامة) بأمر حسي مشاهد أمام أعينهم، وهو **(القَمَر لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ)**.. ولا يخفى أن تمثيل الغيبي الذي لا يُدرك بالحسي المرئي عياناً؛ يؤثر في النفس، ويُوجب لها أُنْسَاً بالمعنى، وتأكيداً وتقريرا له.. ولا شك " أن المشاهدة تُؤثِّر في النفوس مع العلم بصدق الخبر.... يُبيِّن ذلك، أنه لو كان الرجل مثلاً على طرفِ نَهَرٍ في وقتِ مخاطبةِ صاحبِهِ وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء، فأدْخل يده في الماء وقال: انظر هل حَصَل في كفيّ من الماء شيء؟ فكذلك أنت في أمرك، كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول والنطق بذلك دون الفعل" [1].

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني ص: ١٢٦، ١٢٧، تحقيق: محمود شاكر.

ثانياً: تأكيد جملة القول بعدة مؤكدات قاطعة في تأكيد رؤية الله تعالى يوم القيامة: **(إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ)**، تأمل التأكيد بـ**(إنَّ)** المتصلة بضمير المخاطبين **(كُمْ)** وما توحي به من بشارة خاصة بالمؤمنين دون غيرهم، ثم تأمل التأكيد كذلك بالسين المقترنة بالفعل المضارع وما توحي به من تأكيد الوعد وتحقيق الأمر وهو الرؤية [١].. ولم يكتف الرسول ﷺ بتأكيد الرؤية من خلال الجملة المؤكدة التي صدّر بها كلامه؛ لكنه أراد توضيح ذلك المعنى وتقريره في أذهانهم بطريقة أخرى، فأتى بالتشبيه المشاهد عياناً، فقال: **(كَمَا تَرَوْنَ هَذَا)** إشارة إلى القمر في ليلة أربع عشرة. ووجه الشبه المُفَاد من رؤية الله ﷻ بالقمر في ليلة البدر؛ هو تحقيق الرؤية التامة الواضحة الظاهرة التي لا لبس فيها ولا خفاء. قال النووي: " أَيْ تَرَوْنَهُ رُؤْيَةً مُحَقَّقَةً لَا شَكَّ فِيهَا وَلَا مَشَقَّةَ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ رُؤْيَةً مُحَقَّقَةً بِلَا مَشَقَّةٍ فَهُوَ تَشْبِيهٌ لِلرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ لَا الْمَرْئِيِّ بِالْمَرْئِيِّ، وَالرُّؤْيَةُ مُخْتَصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ" [٢].

وإنما شبه الرؤية برؤية البدر؛ لمعنيين: أحدهما: أن رؤية القمر ليلة البدر لا يُشَكُ فيه ولا يُمتَرى، والثاني: يستوي فيه جميع الناس من غير مشقة، وَالْعَرَبُ تَضْرِبُ الْمَثَلَ بِالْقَمَرِ فِي الشُّهْرَةِ وَالظُّهُورِ، فَيَقُولُونَ: هَذَا أَبْيَنُ مِنَ الشَّمْسِ، وَمِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ، وَأَشْهَرُ مِنَ الْقَمَرِ، قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

(١) ينظر: دليل الفالحين لابن علان ٥٣٨/٦.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٣٤/٥.

وَقَدْ بَهَرْتَ فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ∴ إِلَّا عَلَى أَحَدٍ لَا يَعْرِفُ الْقَمَرَا [١].

وقوله ﷺ : **(لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ)** تأكيد آخر بطريق الإيغال اللطيف، والغرض منه تأكيد الوضوح ونفي المشقة والاختلاف في الرؤية، قال النووي: "مَعْنَاهُ تَشْبِيهُ الرُّؤْيَةِ بِالرُّؤْيَةِ فِي الْوُضُوحِ وَزَوَالِ الشَّكِّ وَالْمَشَقَّةِ وَالِاخْتِلَافِ" [٢].

ولما كان ﷺ هاديا ومربيا لأمته؛ لم يقتصر في بيانه على تأكيد رؤية الله ﷻ في الآخرة فقط، وإنما انتهز الفرصة أيضاً في الحث على الصلاة التي هي عماد الدين، ودلّنا على السبب الموجب لهذه الرؤية، وهذا الشرف الذي لا يطاوله شرف، فقال: **(فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا)**، فالمحافظة على صلاتي الفجر والعصر هي السبب الذي يبلغ بالعبد لاستحقاق رؤية الله ﷻ في الآخرة. قال ابن رجب: " أَمْرٌ بالمحافظة على هاتين الصلاتين، وهما صلاة الفجر وصلاة العصر، وفيه إشارة إلى عظم قدر هاتين الصلاتين، وأنهما أشرف الصوات الخمس، ولهذا قيل في كل منهما: إنها الصلاة الوسطى، وقد قيل في مناسبة الأمر بالمحافظة على هاتين الصلاتين عقيب ذكر الرؤية: أن أعلى ما في الجنة رؤية الله ﷻ، وأشرف ما في الدنيا من الأعمال هاتان الصلاتان، فالمحافظة عليهما يرجى بها دخول الجنة ورؤية الله ﷻ فيها" [٣].

---

(١) ينظر: فتح الباري لابن رجب ٣٢٠/٤، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٢٩٨/١.. والبيت منسوب لذي الرمة في: الأمثال لابن سلام ص: ٩٣ تحقيق: د/عبد المجيد قطامش، والموشح للمرزباني، ص: ٢٣٧.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٨/٣.

(٣) فتح الباري لابن رجب ٣٢٣/٤.

وقيل إنما خص هاتين الصلاتين؛ لِمَا فِي الصُّبُحِ مِنْ مَيْلِ النَّفْسِ إِلَى الِاسْتِرَاحَةِ وَالنَّوْمِ، وَفِي الْعَصْرِ مِنْ قِيَامِ الْأَسْوَاقِ وَاشْتِغَالِ النَّاسِ بِالْمُعَامَلَاتِ، فَمَنْ لا يَلْحَقُهُ فَتْرَةٌ فِي الصَّلَاتَيْنِ مَعَ مَا لَهُمَا مِنْ قُوَّةِ الْمَانِعِ، فَبِالْحَرِيِّ أَنْ لَا تَلْحَقَهُ فِي غَيْرِهِمَا.(١)

وهكذا تدرك معي- بارك الله فيك- أن المربي والمعلم ﷺ جمع في بيانه بين البلاغة الفعلية والقولية، وانتهز الفرصة المواتية في هذا الحديث؛ للتأكيد على المعنى المراد وتقريره في نفوس المخاطبين وأذهانهم بصنعة جمعت بين الإفادة والإمتاع، والتأثير والإقناع، ولم تخل من البشارة المرغبة، والإرشاد الهادف.

تصحيح المعتقد بنسبة المطر إلى الله دون غيره.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَامَ الحُدَيْبِيَةِ، فَأَصَابَنَا مَطَرٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: " قَالَ اللَّهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَجْمِ كَذَا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ كَافِرٌ بِي** " (٢)

الفرصة المواتية هنا: (مَطَرٌ) أصاب الرسول والصحابة ليلة الحديبية: (**فَأَصَابَنَا مَطَرٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ**)، والمعنى المراد إثباته: تصحيح المعتقد الفاسد والزعم الخاطئ عند البعض في نسبة نزول المطر إلى غير الله، كالأنواء والنجوم، وردِّ

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح ٣٦٠٢/٩.

(٢) صحيح البخاري ١٢١/٥ حديث (٤١٤٧)، وصحيح مسلم ٨٣/١ حديث (٧١).. واللفظ للبخاري.

ذلك إلى فاعله وخالقه وهو الله ﷻ شكراً له على رحمته ورزقه وفضله.

وما كان لرسول الله ﷺ وهو المعلم والمربي والهادي أن يترك هذه الفرصة السانحة دون أن يستثمرها ويوظفها في حاق موضعها، فكيف جاءت صنعته البيانية في الربط بين الفرصة والمعنى؟ وما أدواته الأسلوبية التي وظفها؟

لقد سلك الرسول ﷺ في بيان هذا المعنى مسلكاً تربوياً تضمن عدة أساليب بيانية نهضت بتوضيح المعنى المراد توضيحاً حقق المطلوب منه على أكمل وجه، ومنها:

أولاً: انتهاز الرسول ﷺ للفرصة، وتهيئة الصحابة تهيئة فعلية وقولية؛ لتلقي المعنى، وقد تحققت هذه التهيئة في عدة صور صاحبت بيانه ﷺ ولم تنفك عنه؛ تأمل مراعاة الراوي لبيان الملابسات المصاحبة: **(فَأَصَابَنَا مَطَرٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ)**، وفي رواية أخرى: **(عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ)** (١)، وهذا يدل على معايشة الرسول والصحابة لنزول المطر في ذلك الوقت وهو أدعى لاهتبال الفرصة وربطها بالمعنى، ولاحظ رصد الراوي كذلك لفعل الرسول ﷺ : **(فَصَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ)**، ولا مرية في إن إلقاء الخبر بعد صلاة الصبح بمعية الرسول لا بد وأن يصادف نفوساً مطمئنة، متهيئة لاستقبال مولد يوم جديد، وفيض نبوي كريم؛ فلا تملك إلا أن تستقر المعاني في الأذهان، وتترسخ في العقول، وتؤثر في القلوب.. ثم تأمل هذا التصعيد في التهيئة من خلال البيان الفعلي المقصود من الرسول ﷺ : **(ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا)**، وهذا منهج تربوي وتعليمي في بيان ضرورة مواجهة المعلم للمتلقي؛ تهيئة له وشدا لانتباهه.. ولم يكتف الرسول ﷺ بهذه الوسائل والملابسات، وإنما ضاعف في التهيئة والتشويق والإثارة من خلال

(١) صحيح البخاري ٣٣/٢ حديث (١٠٣٨).

أسلوب الاستفهام المراد به التنبيه والتحفيز [1]، فقال: **(أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟)**، وقد أعان على ذلك تعلق فعل القول بلفظ (رَبّ) وإضافته لضمير المخاطبين (كُمْ)، وما يوحي به من خصوصية وتشريف تستلزم زيادة الإقبال والتهيئة والتشويق لمعرفة مقول القول.

وبعد أن تأكد الرسول ﷺ من تهيئة الصحابة، ومعايشتهم للملابسات المصاحبة، وتشوقهم للقول، بدليل جوابهم الملتزم بحدود الأدب والعلم: **(قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)**؛ عندئذٍ وجد الرسول ﷺ الفرصة سانحة لربط المعنى بالفرصة المصاحبة، فقال: **(قَالَ اللَّهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَجْمِ كَذَا؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ كَافِرٌ بِي)**.

ولا شك أن المعنى هنا قد صادف عقولاً مهيأة، وقلوباً مطاوعة؛ فوقع موقعه اللائق، وتقرر في أذهان الجميع خطورة الاعتقاد الفاسد أو الخاطئ الذي ينسب نزول المطر لغير الله؛ فالأمر جدٌّ خطير يترتب عليه إيمانٌ أو كفرٌ، ويترتب عليه تصحيح لمعتقد فاسد، وتعليم لوضع الأمور في نصابها الصحيح وذلك برد نزول المطر إلى فاعله ومسببه وهو الله تعالى؛ رحمةً بعباده، وتفضلاً عليهم، ورزقاً لهم.

ثانياً: وقد أعان على توضيح المعنى وتقريره في القلوب والعقول؛ صياغةٌ بلاغيةٌ محكمة، ونظمٌ دقيقٌ، ناسب المقام والحال.. تأمل بناء الكلام في قالب الإجمال ثم التفصيل: **(أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي، فَأَمَّا مَنْ قَالَ:**

(١) شرح القسطلاني ٢/٢٥٧.

مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ......) وما في ذلك الأسلوب من إثارة وتشويق، وتأكيد للمعنى في صورتين مختلفتين إحداهما مبهمة مجملة والأخرى موضحة مفصلة، وهذا أمر مستحسن؛ لأنه كعرض الحسناء في لباسين(١)، فضلا عما في ذلك الأسلوب من سبك وإفراغ للكلام في قالب واحد كأنه كلمة واحدة، يؤكد هذا قول الإمام عبد القاهر الجرجاني: " وجملةُ الأمر أنه ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له، لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام. ومن ههنا قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة " (٢)

وزاد من جمال العبارة والنظم أسلوب التقسيم البديع في قوله: **(أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِي)** (٣)، وهو تقسيم مستوعب لأصناف العباد تبعاً لاعتقادهم في إنزال المطر، بين صنف معتقد بنسبة المطر إلى فاعله وخالقه وهو الله تعالى، وبين صنف آخر معتقد لنسبة المطر إلى الأنواء والنجوم،

---

(١)حاشية الدسوقي ٣/٢١٠ (ضمن شروح التلخيص).

(٢) دلائل الإعجاز، ص: ١٣٢، تحقيق: محمود شاكر.

(٣) قَالَ النَّوَوِيُّ: وَاخْتَلَفُوا فِي كُفْرِ مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: هُوَ كُفْرٌ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ سَالِبٌ لِأَصْلِ الْإِيمَانِ، وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ مَنْ قَالَهُ مُعْتَقِدًا بِأَنَّ الْكَوْكَبَ فَاعِلٌ مُدَبِّرٌ مُنْشِئٌ لِلْمَطَرِ كَزَعْمِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَا شَكَّ فِي كُفْرِهِ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَالْجَمَاهِيرِ، وَثَانِيهِمَا: أَنَّهُ مَنْ قَالَ مُعْتَقِدًا بِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِفَضْلِهِ، وَأَنَّ النَّوْءَ عَلَامَةٌ لَهُ وَمَظَنَّةٌ = = بِنُزُولِ الْغَيْثِ، فَهَذَا لَا يَكْفُرُ لِأَنَّهُ بِقَوْلِهِ هَذَا كَأَنَّهُ قَالَ: مُطِرْنَا فِي وَقْتِ كَذَا، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ مَكْرُوهٌ كَرَاهَةَ تَنْزِيهٍ؛ لِأَنَّهُ كَلِمَةٌ موهمةٌ مُتَرَدِّدَةٌ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، فَيُسَاءُ الظَّنُّ بِصَاحِبِهَا؛ وَلِأَنَّهَا شِعَارُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَالْقَوْلُ الثَّانِي: كُفْرَانٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِاقْتِصَارِهِ عَلَى إِضَافَةِ الْغَيْثِ إِلَى الْكَوْكَبِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا التَّأْوِيلَ الرِّوَايَةُ " الْأُخْرَى: «أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرًا وَكَافِرًا»، وَفِي أُخْرَى: «مَا أَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِي مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ بِهَا كَافِرِينَ» (ينظر: شرح النووي على مسلم ٢/٦٠).

والأول مؤمن صحيح العقيدة، والثاني كافر فاسد العقيدة، ولا ثالث لهما.

ولا شك أن تصدير الرسول ﷺ للكلام بهذه الجملة المجملة والمستوعبة لأصناف العباد زاد من تشوق الصحابة لمعرفة السبب لا سيما وأن الأمر خطير يتعلق بالإيمان والكفر، وهيأهم للوقوف على الفعل الذي يصنف العباد صنفين متقابلين في العقيدة؛ خوفاً من الوقوع فيه، وحرصاً على اجتنابه والبعد عنه؛ وعندئذٍ يأتي الإيضاح الكاشف، فيقول ﷺ: **(فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبِرِزْقِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَجْمِ كَذَا؛ فَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ كَافِرٌ بِي)**. وقد بنى الرسول ﷺ أسلوب التفصيل على طريقة المقابلة؛ لتأكيد المعاني المتضادة وتوضيحها في أذهان المخاطبين.

ولا شك أن هذه الأساليب والملابسات التي وظفها الرسول ﷺ في الحديث ناسبت المعنى المراد تقريره، وناسبت مقام التعليم والإرشاد، وجاءت قطعة أدبية رائقة البيان، سامية الهدف والمغزى.

إبطال المعتقد بنفي العلة الفاعلة لكسوف الشمس والقمر، وإثبات الصواب.

روى البخاري في صحيحه " **عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ النَّاسُ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللَّهَ»** (١).

الفرصة المواتية هنا: كسوفُ الشمس يوم موت إبراهيم ابن الرسول ﷺ، وزاد من تعاظم الفرصة اعتقادُ الناس–فيما ورثوه عن الجاهلية– أن الشمس كسفت لموت إبراهيم ابن النبي، وقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون_ باطلاً وتوهماً_ أن الشمس والقمر لهما سلطانٌ وإرادة، وأنهما يتأثران بموت عظيم في الأرض أو ولادته، ويعللون للكسوف أو الخسوف بذلك (٢).

والمعنى المراد تقريره: إبطال هذا المعتقد ونفي العلة المتوهمة لكسوف الشمس والقمر، وَأَنَّهما خَلْقَانِ مُسَخَّرَانِ لِلَّهِ، لَيْسَ لَهُمَا سُلْطَانٌ ولا إرادة فِي ذاتهما أو في غَيْرِهِمَا، مع تعليم المسلمين ما ينبغي عليهم من صلاة ودعاء عند رؤية الكسوف أو الخسوف؛ طمعاً في رحمة الله، ودرءاً لعقابه؛ لأنهما علامتان من آيات الله الدالة على وحدانيته، وعظيم قدرته، وهما آيتان على تخويف العباد من بأس الله وسطوته، مصداقا لقول الحق: **{وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا}** [الإسراء: ٥٩].

(١) صحيح البخاري ٣٤/٢ حديث (١٠٤٣).

(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر ٥٢٨/٢، ونيل الأوطار للشوكاني ٣٨٨/٣، ومرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري ١٤١/٥.

وقد انتهز الرسول ﷺ هذه الفرصة المواتية، فصحَّح-أولاً- المعتقد الباطل، فقال: **(إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ)**، وقد صاغ ﷺ الجملة صياغة تناسب اعتقاد المعتقِد المخالف؛ فأكدها بـ**(إِنَّ)**، ونفيِّ العلة المُتَوَهَمَة: **(لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ)**، ونكَّر **(أَحَدٍ)**؛ لإفادة العموم مهما كانت عظمته ومكانته، واحترس احتراسا لطيفا بقوله: **(ولا لحياته)**؛ دفعاً لتوهم من يقول: قد لا يكون الموتُ سبباً للكسوف، ويكون نقيضه وهو الحياة سبباً له، فعمَّم الشارع لذلك، أي: ليس سببه لا الموت ولا الحياة، بل سببه قدرة الله تعالى فقط. [١]

وجمع القمر مع الشمس مع أن الحادثة في كسوف الشمس؛ تعميماً لإبطال التأثير في سائر الكواكب. ووصف الشمس والقمر بالكسوف مع أن الخسوف للقمر؛ تغليباً لصفة الشمس؛ لشرفها وعظم نفعها.

وبعد أن أبطل الرسول ﷺ المعتقد، وصحح المفاهيم؛ انتهز الفرصة-ثانية- وعلَّم المسلمين ما ينبغي عليهم عند رؤية الكسوف، فقال: **(فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا، وَادْعُوا اللَّهَ)**، وهذا هو محمد العظيم، لم يشغله حزنه العميق على موت ابنه في أن يغتنم الفرصة ويعلم الأمة. " إن هذا الموقف وحده ينبئ عن معدن الشرف العريق في نفس الرسول، فلو كان زعيما انتهازياً لعدَّ الأمر آية خارقة تَشُدُّ أزره، وتُعْلِي مكانه، لكنه آثر الصمت لتمضي المقالة في كل مكان، ولكن محمداً أرسل بالإسلام ليضيء العقول، ويبدد الخرافات، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكيف يصبر على جهل ينشر ويذاع؟ لا بد أن يضع الأمر في نصابه،

---

(١) ينظر: شرح الكرماني ١٢٩/٦، ١٣٠ وعمدة القاري ٦٨/٧، وفتح الباري ٥٢٨/٢، ومرعاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح ١٤٠/٥.

فهو بإيمانه ليس بحاجة إلى شائعة خرافية تزيد من اعتباره في الناس، بل إنه يعد نفسه قد تخلى عن رسالته إذا ارتكزت في بعض أصولها على الخرافات، فليرشد الناس، وسيجد الإرشاد موقعه إذا لمس المناسبة الهائلة التي تتقطع دونها المناسبات" (١).

التحذير من الغلو في الدين.

روى ابن ماجة في سننه "**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ «الْقُطْ لِي حَصًى» فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ وَيَقُولُ «أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ، فَارْمُوا» ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»**(٢).

إنَّ القصد والاعتدال والوسطية في كلّ الأمور من أخلاق محمد ﷺ ومنهجه وآدابه التي دعا إليها وحث الناس على العمل بها، وها هو ﷺ صباح رمي جمرة العقبة، يأمر ابن عباس رضي الله عنه أن يلتقط له الحصيات، فلما التقط له سَبْعَ حَصَيَاتٍ من حَصَى الْخَذْفِ؛ أراد النبي ﷺ أن ينتهز الفرصة المواتية، وأن يوظف هذا الجماد الصغير (الحصى)؛ لتعليم الناس القصد في الأمور، والتحذير من الغلو،

---

(١) البيان النبوي د/ محمد رجب البيومي، ص: ١٩١، ١٩٢.

(٢) سنن ابن ماجة ١٠٠٨/٢ حديث (٣٠٢٩) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة ٢٤٨/٣ حديث (١٣٩٠٩) تحقيق: كمال الحوت.. حديث صحيح صححه الألباني.. وحَصَى الْخَذْفِ: حصى صغير يوضع بين السبابتين، وَهُوَ نحو حبة الباقلاء وينبغي ألا يَكُونَ أَكْبَرَ وَلَا أَصْغَرَ فَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ أَوْ أَصْغَرَ أَجْزَأَهُ بِشَرْطِ كَوْنِهَا حَجَرًا. (شرح النووي على مسلم ١٩١/٨)

لا سيما والموقف هو موقف الحج والجمع الغفير.. فكيف سلك المربي ﷺ في بيانه للتعبير عن هذا المعنى؟

لقد أراد ﷺ أن يهيئ الصحابة ويلفت انتباههم لما يقول؛ فجمع في بيانه بين الفعل والقول، تأمل وصف الراوي لفعل الرسول ﷺ بالحصيات: **(فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ)** أي: يحركهن في كفه الشريف، وهذه الحركة لها دلالة مقصودة في بيان النبي ﷺ ؛ فهي تشد انتباه الصحابة وتجذب أنظارهم نحو فعله ﷺ لينتبهوا لما يقول، ومن جهة أخرى توضح لهم عملياً مقدار الحصى المطلوب استخدامه في رمي الجمرات.

وقد صاحبَ هذا البيان الفعلي الحركي بيانٌ قولي مؤكِّد، فقال ﷺ : **(أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ، فَارْمُوا)**، فالرسول هنا في مقام التعليم؛ ولهذا استخدم أسلوب التشبيه لإيضاح الصورة الدقيقة في الذهن، ووظَّف أداة التشبيه **(أَمْثَالَ)** دون غيرها؛ للدلالة على المطابقة في بيان القدر المطلوب لاختيار الحصيات، وأشار إلى المشبه به الحسي المشاهد أمام أعين الجميع بين يديه الشريفة ﷺ؛ تأكيداً وتوضيحاً عملياً على الاعتدال والقصد في اختيار حجم الحصيات.

وينتهز ﷺ الفرصة المواتية، والموقف الداعي، فينتقل من تعليم الخصوصيات إلى العموميات، ومن الجزئيات إلى الكليات، فينبّه الصحابة ويشدُّ انتباههم مرة ثانية لما يقول بهذا النداء العام: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)**، ولمَّا أدرك استماعهم لما يقول، حذّرهم من خطورة الغلو في الدين، فقال: **(إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ)** أَي: التَّشَدُدُ فِيهِ وَمُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْبَحْثُ عَنْ بَوَاطِنِ الْأَشْيَاءِ وَالْكَشْفِ عَنْ

عِلَلِهَا.[1]

ومن دقة الصياغة في هذه الجملة، استعماله ﷺ لصيغة **(إِيَّاكُمْ)** دون اللفظ الصريح: احذروا؛ وذلك لما لهذه الصيغة من خصوصية في استخدامها للتحذير من الأمور الخطيرة، ولا شك أن هذا أدعى لإثارة المخاطبين وشد انتباههم لمعرفة الأمر الخطير الذي يحذرهم منه الرسول ﷺ ، فجاءت هذه الصيغة بمثابة طرقة عنيفة هزت الأسماع، ونبهت الغافلين.. وأفادت (ال) في قوله: **(وَالْغُلُوَّ)** العموم والشمول؛ ليشمل التحذير كل أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال. [2]

وجاء تحذيره ﷺ من الغلو في الدين معلّلا بما يؤكد على ضرورة الابتعاد عنه، فقال: **(فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ)**، فقد ساق ﷺ الدليل الدافع للتحذير من الغلو، وهذا يدل على رحمة النبي ﷺ وخوفه على أمته.

وإنما كان الغلوّ سببا للهلاك؛ لأن فيه مضادّة لحكم اللّه تعالى، حيث إنه شرع لعباده ما لا يشقّ عليهم، فإذا سلك الشخص مسلك التشديد فكأنه يعتقد أن التشريع الإلهي غير كاف، فكان معترضًا على اللّه تعالى، مستوجبًا لعقابه؛ ولذلك نهى الشارع أصحابه عن الترهب. [3]

---

(1) ينظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجة ٢٤٣/٢، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ٤٠٥/٨، وفيض القدير ١٢٥/٣.

(2) ينظر: فيض القدير ١٢٥/٣، والتَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ للأمير الصنعاني ٣٩٨/٤.

(3) ينظر: شرح سنن النسائي المسمى: ذخيرة العقبى في شرح المجتبى، لمحمد الإثيوبي الوَلَّوِي ٣٢/٢٦.

فانظر– رعاك الله– كيف استثمر الداعيةُ البليغ، والهادي البشير محمدٌ ﷺ، الجمادَ الصغيرَ (الحصى) وجعل منه مادة أفاد منها في دعوته، وتعليم أمته، وانظر كم من الحصى تطؤوه أقدامنا ولا يخطر في بال أحد منا كيف نوظفه في التحذير من الغلو أو نحو ذلك.

بيان عظم نعيم الآخرة وتفاوته مقارنة بنعم الدنيا.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ البَرَاءَ ﷺ، يَقُولُ: أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ حُلَّةُ حَرِيرٍ، فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَمَسُّونَهَا وَيَعْجَبُونَ مِنْ لِينِهَا، فَقَالَ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ لِينِ هَذِهِ؟ لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ خَيْرٌ مِنْهَا، أَوْ أَلْيَنُ»** [(١)].

رأي الرسول ﷺ إعجاباً شديدا من الصحابة بلين حُلَّةٍ من حَرِيرٍ أُهديتْ له، فخاف عليهم من الافتتان والميل إلى الدنيا، وأراد ﷺ أن ينتهز الفرصة المواتية ليزهدهم في نعيم الدنيا المتدني ويرغبهم في نعيم الآخرة الرفيع، ويبين لهم بُعدَ التفاوت بين حُلل الدارين.

يؤيد هذا المعنى ما ذكره السندي: " فَخَافَ ﷺ الْمَيْلَ فِي الدُّنْيَا فَزَهَّدَ فِيهَا وَرَغَّبَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِمَا قَالَ" [(٢)].

ويؤيده أيضاً ما ورد في شرح مصابيح السنة لابن المَلَك، قال: " وفيه تنبيهٌ

[(١)] صحيح البخاري ٣٥/٥ حديث (٣٨٠٢)، وصحيح مسلم ١٩١٦/٤ حديث (٢٤٦٨).. والْمَنَادِيلُ: جَمْعُ مِنْدِيلٍ بِكَسْرِ الْمِيمِ فِي الْمُفْرَدِ، وَهُوَ هَذَا الَّذِي يُحْمَلُ فِي اليد قال ابن الأعرابي وابن فَارِسٍ وَغَيْرُهُمَا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ النَّدْلِ وَهُوَ النَّقْلُ لِأَنَّهُ يُنْقَلُ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى وَاحِدٍ وَقِيلَ مِنَ النَّدْلِ وَهُوَ الْوَسَخُ لِأَنَّهُ يُنْدَلُ بِهِ قَالَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ يُقَالُ مِنْهُ تَنَدَّلْتُ بِالْمِنْدِيلِ وَيُقَالُ أَيْضًا تَمَدَّلْتُ. (ينظر: شرح النووي على مسلم ٢٣/١٦)

[(٢)] حاشية السندي على سنن ابن ماجه، المسمى:" كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه" ٦٩/١.

على بُعد المناسبة بين حُلل الدارين، حتى إن أرفع شيءٍ مِنْ هذه لا يقاوم أوضعَ شيء من تلك" (١).

وقد سلك ﷺ في بيان هذا المعنى مسلكاً بليغا، حيث أراد أن يمهد لما يلقيه عليهم، ويشد انتباههم إليه، ويشوقهم إلى الخبر؛ ففاجأهم بهذا الاستفهام الإنكاري الذي يخالف قناعتهم، ويضاعف من دهشتهم واستغرابهم، فقال: **(أَتَعْجَبُونَ مِنْ لِينِ هَذِهِ؟)** أي: هذه الحُلّة؟

ثم ألقى إليهم الخبر مُؤَكَّداً بعد أن هيأهم لتلقيه؛ ليناسب حالهم، فقال: **(لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ خَيْرٌ مِنْهَا، أَوْ أَلْيَنُ)**، وفي رواية: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا)** (٢).. لقد أراد ﷺ أن ينقلهم من نعيم الدنيا الضئيل إلى نعيم الآخرة العظيم، وأن يذكرهم بعظيم عطاء الله في الآخرة، حتى لا يركنوا إلى الدنيا الفانية؛ فاستثمر الفرصة، وربط بين الحلتين؛ ليعقد مقارنة بينهما، فضرب لهم المثل بمناديل سعد بن معاذ رضي الله عنه في الجنة، وإنما ضرب المثل بالمناديل؛ لأنها ليست من علية الثياب، بل تُبْتَذَل في أنواعٍ من المرافق فيُمسح بها الأيدي، ويُنفض بها الغبار عن البدن، ويُغطى بها ما يُهدى في الأطباق، وتُتخذ لفافاً للثياب، فصار سبيلها سبيل الخادم وسبيل سائر الثياب سبيل المخدوم، فإذا كان أدناها هكذا فما ظنك بعليتها؟ وإذا كَانَت مناديل الجنة أفضل من هَذِه الحُلّة الدنيوية؛ دلّ على عطايا الرب، جلّ جَلَاله، قَالَ تعالى: **{فَلَا تعلم نفس مَا أُخْفِي لَهُم من قُرَّة أعين}** [السَّجْدَة: ٧١]. (٣)

---

(١) شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، لابن المَلَك ٦/٤٩٠.

(٢) ينظر: صحيح البخاري ٨/١٣١ حديث (٦٦٤٠).

(٣) ينظر: شرح القسطلاني ٥/٢٨٤، وعمدة القاري ١٣/١٧٠.

فالغرض من المثل بيان أَن الْمَنَادِيل الَّتِي يَمْسَحُ بِهَا سَعْدٌ يَدَهُ في الجنة خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ أَرْفَعَ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ لَا يُقَاوِمُ أَوْضَعَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ. (١)

وفي هذا الحديث إِشَارَةٌ إِلَى عَظِيمِ مَنْزِلَةِ سَعْدٍ فِي الْجَنَّةِ، وقيل إن العلة في تخصيص (مناديل سعد بن معاذ) أنَّ منديله كَانَ من جنس ذَلِك الثَّوْب لوناً وَنَحْوه، أَو كَانَ الْوَقْت يَقْتَضِي استمالة سعد، أَو كَانَ اللامسون المتعجبون من الْأَنْصَار، فَقَالَ: منديل سيدكم خير مِنْهَا، أَو كَانَ سعد يحب ذَلِك الْجِنْس من الثِّيَاب. (٢)

لا شك أن انتهاز الرسول ﷺ للفرصة السانحة هنا لا تقل بلاغة عن بيانه اللفظي، ولا شك أن الجمع بين البيانين؛ أثر في نفوس الصحابة، وأدى دوره في ترغيبهم وطمعهم فيما عند الله في الآخرة، وزهدهم في متاع الدنيا الزائل، وهكذا تكون الدعوة، وهكذا يكون البيان.

الزجر والنهي عن اتخاذ الذهب زينة للرجال

روى أحمد في مسنده، والنسائي في سننه " **عَنِ عَطَاءِ بْنِ يَزِيدَ اللَّيْثِيِّ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، رَأَى فِي أَصْبُعِهِ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَقْرَعُ يَدَهُ بِعُودٍ مَعَهُ، فَغَفَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ، فَأَخَذَ الْخَاتَمَ، فَرَمَى بِهِ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ**

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح ٤٠٠٢/٩، شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمِ لِلقَاضِى عِيَاض المُسَمَّى إِكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم ٧٩٨/٧.

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم ٢٣/١٦، وعمدة القاري ١٧٠/١٣، والكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، للكرماني ١٤٢/١١، والديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، للسيوطي ٤٣٢/٥.

ﷺ ، **فَلَمْ يَرَهُ فِي أَصْبَعِهِ، فَقَالَ: مَا أُرَانَا إِلَّا قَدْ أَوْجَعْنَاكَ وَأَغْرَمْنَاكَ** " [١]

الداعية الناجح هو الذي ينتهز الفرص لتقويم الأخطاء، وتصحيح الأفعال، وإذا انضم إلى ذلك أسلوب بياني مناسب، وطريقة ملائمة لحال المتلقي؛ فإنه دون شك يؤثر فيه، ويكون أدعى للقبول والإقناع والاستجابة.

وها هو المعلم الأول والمربي البليغ ﷺ يرى في أصبع الصحابي أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ (**خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ**)!!! فينتهز هذه الفرصة المواتية؛ ليعلّمه حرمة اتخاذ الذهب زينة للرجال، لكن الرسول ﷺ سلك معه مسلك البيان الفعلي لا القولي: (**فَجَعَلَ يَقْرَعُ يَدَهُ بِعُودٍ مَعَهُ**) وفي رواية النسائي: (**فَجَعَلَ يَقْرَعُهُ بِقَضِيبٍ مَعَهُ**).

وهذا البيان الفعلي له دلالات مقصودة، ربما يضيق اللفظ في هذا السياق عن آدائها والنهوض بها؛ ففيه-أولاً- زجر للصحابي على هذا الفعل الذي يخالف الشرع، وفيه بيان بحرمة اتخاذ الذهب لباسا للرجال، وقد فهم الصحابي العلة من هذا الزجر، واستوعب الحكم؛ (**فَأَخَذَ الْخَاتَمَ، فَرَمَى بِهِ**)، وهذه السرعة في التنفيذ والاستجابة المفادة من دلالة الفاء: (**فَأَخَذَ، فَرَمَى**) أثر ناتج من الوسيلة البيانية الفعلية التي سلكها الرسول ﷺ مع الصحابي. وفيه أيضاً دلالة على حب الصحابي للنبي ﷺ وحرصه على تنفيذ أوامر الشرع بسرعة.

---

(١) مسند أحمد ٢٨٣/٢٩ حديث (١٧٧٤٩) ، والسنن الكبرى للنسائي ٣٧٤/٨ حديث (٩٤٣٧) وصحيح ابن حبان ٥٣٨/١ حديث (٣٠٣).. واللفظ للإمام أحمد.. حديث صحيح صححه الألباني.. وأَبُو ثَعْلَبَة الْخُشَنِي: اخْتلف فِي اسْمه وَفِي اسْم أَبِيه اخْتِلَافا كثيرا. فَقيل: اسْمه عَمْرو بن جرثوم، وَقيل غير ذَلِك، وَلم يَخْتَلِفُوا فِي صحبته، وَقَالَ أَبُو عمر: بَايع تَحت الشَّجَرَة ثمَّ نزل الشَّام وَمَات فِي خِلَافه مُعَاوِيَة، ونسبته إِلَى خُشَين بِضَم الْخَاء وَفتح الشين المعجمتين وَهُوَ وَائِل بن قضاعة. (ينظر: عمدة القارئ ٢٤٩/٢٠ ، ومرقاة المفاتيح ٢٥١٩/٦).

إن القرع بالعود أو القضيب على يد الصحابي وسيلة تربوية ناجعة لها أثرها وتأثيرها الحالي والمستقبلي، وقد رأينا أثرها الحالي السريع، ولا شك أن الصحابي لا بد وأن يتذكر قرع الرسول ﷺ له كلما هَمَّ باتخاذ الذهب خاتما لإصبعه مستقبلا.

ولما كان الرسول ﷺ حريصاً على تأليف القلوب وتطييبها، ومداواتها بعد تقويمها؛ قال للصحابي- لا سيما بعد أن رآه قد استجاب واستفاق-: **(مَا أُرَانَا إِلَّا قَدْ أَوْجَعْنَاكَ وَأَغْرَمْنَاكَ)**، وهذا من التلطف في اللفظ ومراعاة حال النفس، كما أن هذا التأليف التربوي البليغ أفاد أن قرع الصحابي على يده بعود أو قضيب؛ إنما كان من أجل كراهية الفعل لا الفاعل، وربما كان الصحابي يعلم الحكم لكنه تهاون أو قصَّر فيه، لا سيما إذا علمنا أن الرسول كان من عادته الرفق في تعليم الجاهل بالحكم.

إن ما نراه عند بعض الدعاة المتشدقين والمتفيهقين في المواقف المشابهة، من مبادرةٍ بتوجيه عبارات: المخالفة للشرع، والوقوع في المحظور، واجترار النصوص الشرعية المحفوظة للتدليل على الحرمة أو الكراهة، وغير ذلك من العبارات المنفرة التي لا تراعي الرفق بالجاهل أو المخطئ؛ ليجعلنا نزداد يقيناً وإيماناً ببلاغة الرسول ﷺ الربانية، وأن الله قد منحه من بيان الفعل ومراعاة أحوال المخاطبين ونفسياتهم ما لا يقل أهمية عن بيان اللفظ، ولهذا كان تأثيره ﷺ سريعاً وملازما.

التعليمُ وبيانُ الحكمة في النّهى عَنْ الْبُصَاق إلَى جِهَة الْقِبْلَة.

روى البخاري في صحيحه " **عَنِ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّهُ قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ ﷺ نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ المَسْجِدِ وَهُوَ يُصَلِّي بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ، فَحَتَّهَا، ثُمَّ قَالَ حِينَ انْصَرَفَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلاَةِ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلاَ يَتَنَخَّمَنَّ أَحَدٌ قِبَلَ وَجْهِهِ فِي الصَّلاَةِ»** (١)

واجه النبي ﷺ في أوّليّات دعوته عاداتٍ مخالفة، وطباع متنافرة، وكان همُّه ﷺ تهذيب هذه النفوس وتربيتها وتعليمها برفق وإقناع.. وبينما هو ﷺ في صلاته إذ رأى: (**نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ المَسْجِدِ**)؛ فأراد أن ينتهز هذه الفرصة، وأن يستثمر هذا السلوك المعيب؛ ليعلم المسلمين أدباً من آداب الإسلام الراقية، فماذا صنع؟ وماذا قال؟

لقد سلك الرسول ﷺ في انتهاز هذه الفرصة مسلك التعليم والتوجيه الذي يجمع بين بيان الفعل وبيان القول، تلحظ هذا في وصف الراوي لفعل الرسول ﷺ بيده الشريفة: (**فَحَتَّهَا**)، وفي رواية للبخاري: (**فَتَنَاوَلَ حَصَاةً فَحَكَّهَا**)، ودلالة هذا الفعل الشريف جاءت بمثابة التعليم الذي يجذب الانتباه، ويمهد النفوس لما يأتي بعده من بيان قولي.

ومن بلاغته ﷺ أنه علل الحكمة من النهي عن الفعل وقدم العلة على النهي، فقال: (**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ فِي الصَّلاَةِ فَإِنَّ اللَّهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلاَ يَتَنَخَّمَنَّ أَحَدٌ قِبَلَ وَجْهِهِ فِي الصَّلاَةِ**).. فالله ﷻ عظيم، وجهة القبلة معظمة، ولا يتأتى ولا يليق أن يقابل العظيم بالنخامة والبصاق الذي جرت العادة ألا يقابل به إلا

(١) صحيح البخاري ١٥١/١ حديث (٧٥٣)، ومسند أحمد ١٠٢/٨ حديث (٤٥٠٩).. والنخامة هِيَ الفضلة الْخَارِجَة من الصَّدْر، وهي من الفضلات الطاهرة، لكن النفوس تعافها.

الحقير المهان.

إن هذا التعليل المؤكد كافٍ في البيان والإقناع عن كراهية البصاق إلى جهة القبلة في الصلاة؛ لكنه ﷺ أراد تأكيد ذلك بأسلوب النهي المؤكد، فقال: (**فَلاَ يَتَنَخَّمَنَّ أَحَدٌ قِبَلَ وَجْهِهِ فِي الصَّلاَةِ**).

وقد صاغ ﷺ جملة البيان القولي في قالب الشرط والجزاء؛ للتشديد على النهي في وقت الصلاة خاصة؛ لما فيه من مواجهة العبد في صلاته لله ﷻ مواجهة معنوية تستلزم التعظيم والأدب. ولا يخفى أن أسلوب الشرط أفاد أن النهي يدور مع العلة والظرف وجوداً وعدماً.

وتلحظ أن الرسول ﷺ عالج الموقف بلطف وحكمة، فلم يقل مثلاً: (من فعل هذا؟ هذا استخفاف وتحقير لا يليق بعظمة الله وجلاله لا سيما في الصلاة) وغير ذلك من الأساليب المنفرة؛ لكنه ﷺ كما بينا عالج الموقف معالجة تربوية مثمرة، وانتهز الفرصة انتهاز الداعية الحريص على تهذيب النفوس وتقويمها، وجمع في بيانه بين الفعل والقول تعليما وإرشادا.

إرشاد المخاطب إلى التعوذ من القمر عند دخول الليل.

روى أحمد في مسنده، والترمذي في سننه " **عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ**" [1]

---

(1) مسند أحمد ١٣٨/٤٣ حديث (٢٦٠٠٠)، وسنن الترمذي ٣١٠/٥ حديث (٣٣٦٦).. واللفظ للترمذي.. حديث حسن صحيح.. والغسق: ظلمة أول الليل، والغاسق: القمر أو الليل إذا غاب الشفق.. ووقب القمر: دخل في الخسوف أو أخذ في الغيبوبة.

المقام هنا مقام تعليم وإرشاد.. والنبي ﷺ أراد أن يعلّم عائشة رضي الله عنها أمراً مهما؛ فانتهز الفرصة وربط في بيانه بين الأمر الحسي المشاهد عياناً: **(نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ)**، وبين اللفظ المُخَصِّص والمُؤَكِّد للمعنى المراد، فقال: **(يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ)**.

ولا يخفى أن نظر الرسول ﷺ إلى القمر، ثم تكرار الإشارة إليه في طلب الاستعاذة بالله منه إذا أقبل الليل ودخل القمر في الكسوف؛ يدل على إرادة تعيينه وتخصيصه؛ ليكون المعنى المراد تعليمه حاضراً في الذهن عند رؤيته في كل مرة، فلا يغفل السامع عن هذا الإرشاد أو ينساه، وهذا بخلاف الإخبار المجرد عن الربط بينه وبين الحسي المشاهد؛ فإنه لا يحقق ذلك غالباً.

يقول الطيبي: " وَلِأَنَّ اسْمَ الْإِشَارَةِ فِي الْحَدِيثِ كَوَضْعِ الْيَدِ فِي التَّعْيِينِ وَتَوْسِيطُ ضَمِيرِ الْفَصْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخبر المعرف يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ هُوَ الْقَمَرُ لَا غَيْرُ" [1]

وإِنَّمَا اسْتَعَاذَ ﷺ مِنْ كُسُوفِهِ وظلمته عند دخول الليل؛ لِأَنَّهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى حُدُوثِ بَلِيَّةٍ وَنُزُولِ نَازِلَةٍ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَلَكِنْ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ).. وخص ذلك الوقت؛ لِأَنَّ فِيه تَنْتَشِرُ الْآفَاتُ، وَيَقِلُّ الْغَوْثُ، وَفِيهِ يَتِمُّ السِّحْرُ الْمُورِثُ لِلتَّمْرِيضِ. [2]

يؤيد هذا ما رواه البخاري: " **عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:** " **إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ، أَوْ قَالَ: جُنْحُ اللَّيْلِ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ**

([1]) شرح المشكاة للطيبي ١٩١٩/٦، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ٢١٣/٩.

([2]) ينظر :شرح المشكاة للطيبي ١٩١٩/٦، ومرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري ٢٣٦/٨، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ٢١٣/٩.

حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ" [1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الرسول ﷺ لم يقصد الاستعاذة من شرّ القمر ذاته؛ لأنه خلق مطيعٌ لأمر الله؛ وإنما يقصد الاستعاذة مما يقع في الليل من أفعال الشياطين والعصاة والمشعوذين الذين ينشطون وينتشرون في هذا الوقت ليمارسوا خبثهم ومعاصيهم.. وعلى هذا فالتعبير بالقمر من باب المجاز المرسل لعلاقة السببية؛ وكأن النبي ﷺ أمر بالاستعاذة من شر القمر الذي هو سبب الليل مريداً بذلك الأشياء التي تكون في الليل مما القمر سبب لها، ولم يرد بذلك نفس القمر. [2]

ومن جمال البيان والتعبير أن الرسول ﷺ أراد شد انتباه عائشة رضي الله عنها قبل إلقاء الأمر؛ فصدَّر كلامه بجملة النداء: **(يَا عَائِشَةُ...)** ولا شك أن " النداء حين يقع بين يدي الأمر والنهي إنما يكون لأمر يهتم به المتكلم ويحرص عليه فيوقظ المخاطب ويهيئه له قبل أن يلقيه عليه" [3]

وقد أتى ﷺ بجملة الأمر معللة ومؤكدة بأكثر من مؤكد، فقال: **(اسْتَعِيذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ)**، وتلحظ أنه ﷺ كرّر الإشارة إلى القمر دون التصريح باللفظ؛ لتعيينه وتخصيصه، وكأن المعنى: هذا القمر هو الغاسق لا غيره؛ فاستعيذي بالله منه.

---

(1) صحيح البخاري ١٢٣/٤ حديث (٣٢٨٠).

(2) ينظر: شرح مشكل الآثار للطحاوي ٢٩/٥.

(3) التصوير البياني، د/ محمد أبو موسى، ص:٦٩.

المحور الثاني

بلاغته ﷺ في توظيف الحيوان

تأتي شواهد الحيوان التي وظفها الرسول ﷺ في المرتبة الثانية من حيث الكثرة، وقد وظف الرسول ﷺ الحيوانات المحيطة بهم في بيئتهم، فشملت: الجدي، والفرس، والبعير، والناقة.. وسوف نتعرف في الصفحات القادمة–بإذن الله– على أهم الأغراض والمعاني المرادة من الانتهاز والتوظيف، ونتعرف كذلك على مسلك النبي ﷺ في بيانه عن هذه المعاني.

بيان هوان الدنيا وحقارتها عند اللّه.

روى مسلم في صحيحه " **عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ، دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: « فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»** (١)

الدعوة هي حياة محمد ﷺ وشغلُه الشاغل.. لم يترك سانحة، أو حادثة إلا وانتهزها بحسن بيان في تبليغ دعوته السامية، والتأثير في نفوس المخاطبين تأثيراً بالغاً.. وها هو ﷺ يمر بالسوق، وما أدراك ما السوق؟ إنه اجتماع الناس

---

(١) صحيح مسلم ٢٢٧٢/٤ حديث (٢٩٥٧)، والأدب المفرد للبخاري ص: ٣٣٤ حديث (٩٦٢).. والجدي: الصغير من ولد الماعز.. والأسك: بِتَشْدِيدِ الْكَافِ أَيْ: صَغِيرِ الْأُذُنِ أَوْ مَقْطُوعِهَا أو عديمها أصلاً.. وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ: أي: جانبه. (ينظر: شرح النووي على مسلم ٣٩/١٨، ومرقاة المفاتيح ٣٢٢٦/٨)

وانشغالهم بالدنيا والمال والربح.. لكن الناس تجتمع حول رسول الله وتحيط به من كل جانب، وبينما هم كذلك يرى الرسول الكريم ﷺ **(جَدْياً أَسَكَّ مَيِّتٍ)**.. إنها الفرصة المواتية.. سوقٌ، واجتماعُ الناس، وانشغالٌ بالدنيا والمال، وعلى الطرف المقابل جديٌ، صغير الأذن أو مقطوعها، ميتٌ.

فينتهز الرسول ﷺ هذه الفرصة المواتية، ويوظفها توظيفاً مناسباً؛ ليزهد الناس في الدنيا ويرغبهم فيما عند الله تعالى، ويبين لهم هوان الدنيا وحقارتها عند الله.. وقد سلك ﷺ في انتهاز هذه الفرصة وبيان هذا المعنى وتقريره مسلكاً في غاية البلاغة والإبداع؛ حيث جمع بين البلاغة الفعلية والبلاغة القولية.

وأول مظاهر هذه البلاغة أنه ﷺ عمد إلى تهيئة المخاطبين، وشد انتباههم، وتشويقهم لما سيلقى عليهم؛ تأمل وصف الراوي لفعل الرسول: **(فتناول الجدي الأسك الميت)**، وهذه الحركة الفعلية لها دلالة مقصودة، وهي توجيه أنظار المخاطبين لصورة مشاهدة محسوسة تجمعت فيها كل معاني الازدراء والحقارة والهوان والعيب، يؤيد هذا وصف الراوي لطريقة تناول الرسول ﷺ للجدي الميت من موضع العيب فيه: **(فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ)**، وكأن الأخذ بها لمزيد الحقارة. (١)

ولم يكتف الرسول ﷺ بهذه الحركة الفعلية الدالة وإنما بالغ في تشويقهم وشد انتباههم لما سيخبرهم به من أمر عظيم؛ فسألهم مقرراً ومسجلاً عليهم تحقيرهم وازدراءهم لهذا الجدي الأسك الميت، فقال: **(أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟)**، أي: بثمن بخس، فلما أجابوا بالنفي المُعَلَّل لرفض العرض:**(فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ)**؛ سألهم سؤالاً ثانياً مترقياً في بيان الهوان وقلة القيمة، فقالﷺ : **(أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟)** أي: بدون ثمن؟ فأجابوا بتكرار النفي المؤكد

(١) ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان ٤/٣٨٨.

بالقسم، الدال على حقارته، وهوانه، وعيبه، وزهدهم فيه حيا وميتا، فـ**(قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟)**.

ولمَّا تأكد الرسول ﷺ من قناعتهم التامة، وإقرارهم المُؤَكَّد والمُعَلَّل بحقارة الجدي الأسكِّ الميت، وهوانه عليهم، وزهدهم فيه؛ شبَّه ومثَّل لهم هوان الدنيا وحقارتها عند الله بهوان هذا الجدي الأسك الميت وحقارته عندهم، فقال مؤكداً هذا المعنى بالقسم، ولام التأكيد، وأفعل التفضيل، والإشارة إلى المشبه به المشاهد المحسوس أمام أعينهم: **(فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ)**.. فوقع المعنى في نفوسهم موقعاً مأنوساً ومُقَرَراً.

لقد استطاع الرسول ﷺ ببلاغته التي لا تدانيها بلاغة بشر أن يقرّر هذا المعنى الذهني المجرد ويمكنه في نفوس المخاطبين تمكيناً جمع بين الإفادة والإمتاع، والتأثير والإقناع.. ولك أن تعقد مقارنة بين الطريقة التي سلكها الرسول ﷺ في بيان هذا المعنى وبين تجريدها من توظيف الفرصة المواتية، والربط بين الصورة الحسية المشاهدة والمعنى المراد، وانظر هل تجد له من الأريحية والأنس والتأكيد والتقرير والإيضاح مثل ما تجده في بيان النبي ﷺ ؟!

إن انتهاز الفرصة المواتية سمتٌ بياني من أرقى سمات البيان النبوي الشريف، ووسيلة دعوية وتربوية من أنجع وسائل محمد ﷺ في دعوته.. وله فيها مسلك بياني عجيب ومتفرد.. لا يقف عند حدود اللفظ والقول، وإنما يجاوز ذلك إلى بيان الفعل، وانتهاز الفرص والملابسات، والتأثير في المخاطبين، والأخذ بمجامع قلوبهم وعقولهم نحو بيانه ﷺ ، وهذا الحديث الذي بين أيدينا أمارة دامغة على ذلك.

إنَّ اختيارَ السوق– وهو أكثر الأماكن غفلة وصخباً للوعظ والتذكير، وانتهازَ وجود **(جَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ)** –؛ لفرصةٌ مواتية للداعية البليغ إذا أجاد توظيفها.. ومحمد ﷺ هو أبو عذرتها، فكيف يفوتها وقد تهيأت الأسباب؟!

وإنَّ مسلك الرسول ﷺ في بيانه مسلك متفرد، يجمع بين البيان الفعلي المُهَيِّئِ للمخاطب، وبين البيان القولي المُؤكِّد والمُوضِّح للمعنى المراد بأساليب البلاغة المتنوعة.

النهي عن الغلول.

روى أحمد في مسنده، والنسائي في السنن " **عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَبَرَةً مِنْ جَنْبِ بَعِيرٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِي مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ قَدْرُ هَذِهِ إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ»** [1]

أراد الرسول ﷺ أن يحذر من الغلول حتى ولو كان شيئا تافهاً صغيراً.. فكيف كان مسلكه في بيان هذا المعنى؟

لقد أراد النبي ﷺ أن يكون هذا المعنى حاضراً مشاهداً في أذهان المخاطبين؛ فعمد إلى الوسائل البيانية الفعلية والقولية؛ لتقرير هذا المعنى وتوضيحه.. وأول هذه الوسائل أنه ﷺ انتهز الفرصة المواتية؛ فـ **(أَخَذَ وَبَرَةً مِنْ جَنْبِ بَعِيرٍ)**، وتلحظ أن الفرصة المُسْتَشْهَد بها هنا جزء من البعير؛ لتعلق المعنى المراد تصويره وتقريره بهذا الجزء دون باقي الحيوان، كما تلحظ أنه ﷺ اختار البعير دون غيره من الحيوانات؛ لكثرة ملازمته لهم في حلهم وترحالهم، وسلمهم وحربهم، فتكون الصورة حاضرة في الأذهان لا تغيب عنهم.

---

(1) مسند أحمد ٣٩١/٣٧ حديث (٢٢٧١٨)، والسنن الكبرى للنسائي ٣٢٨/٤ حديث (٤٤٢٤).. واللفظ للنسائي.

وهذا البيان الفعلي: (**أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَبَرَةً مِنْ جَنْبِ بَعِيرٍ**) له دلالة بلاغية تتمثل في لفت انتباه الصحابة إلى كلامه ﷺ ، وفي توجيه أنظارهم لصورة مشاهدة محسوسة تمثلت فيها كل معاني القلة، والتفاهة، وانعدام القيمة. أو لأن الوبرة من البعير لا ينتفع بها غالباً بخلاف صوف الغنم أو شعر الماعز فإنه أكثر استعمالاً لديهم.. وزاد من بلاغة التأثير ذلك التقييد بالظرف الزماني: (**يَوْمَ حُنَيْنٍ**)، ولا شك أن استغلال الحدث الزماني في التوجيه والإرشاد أدعي لتقرير المعنى في النفوس.

وحتى يربط الرسول ﷺ بين الصورة الحسية المشاهدة، وبين المعنى المراد تصويره وتقريره؛ جمع بين الفعل والقول في آنٍ واحد، نفهم هذا من تعبير الراوي: (**فقال**) بالفاء دون ثم أو غيرها.. ثم مهد للمعنى بأسلوب النداء الجامع: (**أَيُّهَا النَّاسُ**)، ثم أتى بالمعنى مؤكداً بـ(إنَّ)، والقصر بطريق النفي والاستثناء، فقال: (**إِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِي مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ قَدْرُ هَذِهِ إِلَّا الْخُمُسُ، وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ**).

لقد برز المعنى للجميع في صورة واضحة مقررة وهي أن الغلول منهيٌّ عنه مهما كانت تفاهته أو قلة قيمته وحجمه ووزنه.. وليس المراد تخصيص النهي للرسول ﷺ ، وإنما المراد: إذا كان الغلول منهياً عنه في حقه ﷺ ؛ فغيره من باب أولى.

الحث على التواضع، والإعلام بأن أمور الدنيا ناقصة غير كاملة.

روى البخاري في صحيحه " **عَنْ أَنَسٍ ﷺ، قَالَ: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَاقَةٌ تُسَمَّى العَضْبَاءَ، لاَ تُسْبَقُ - قَالَ حُمَيْدٌ: أَوْ لاَ تَكَادُ تُسْبَقُ - فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ، فَقَالَ: «حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ**

يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ» (1).

حُبُّ الصحابة للنبي ﷺ وما يمتلكه من دابة ونحوها؛ جعلهم يتصورون أنها كاملة غير منقوصة، وأنَّ تفوقها على غيرها دائم غير مقطوع ولا مخروق.. وقد أراد النبي ﷺ أن يغير هذا المفهوم الخاطئ، وأن يعلّمهم أصلاً مما جرت به سنة الله في خلقه، وهو: الإعلام بأن أُمور الدنيا ناقصة غير كاملة، وأن دوام الحال من المحال، فما بعد الصعود إلاّ الهبوط، وما بعد الارتفاع إلا الانخفاض.

وقد سلك ﷺ في بيان هذا المعنى بلاغة انتهاز الفرصة، واستثمار الحدث؛ فلما رأى ما أصاب الصحابة من حزنٍ شديد ظهرت آثاره على وجوههم، ومشقةٍ عزّت على نفوسهم؛ نتيجة سَبْق جمل الأعرابي **(لناقة النبي ﷺ التي تُسَمَّى العَضْبَاء)**، وكانت لا تُسبق أو لا تكاد، كما ذكر الراوي؛ انتهز هذه الفرصة المواتية لتقرير أصلٍ من سنن الله، فقال: **(حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ)**.

والحكمة في هذه السُنَّة الإلهية؛ هي الحث على التواضع، والتزهيد في الدنيا، وإغماض الطرف عن زهرتها، والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، والإعلام بأن أُمور الدنيا ناقصة غير كاملة؛ فكل ارتفاع يكون في الدنيا فإنه لابد أن يؤول إلى انخفاض. (2)

والغرض البلاغي من هذا الخبر: **(حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ)** هو التسليةُ والتسرية عن نفوس الصحابة الذين شق عليهم

---

(1) صحيح البخاري ٣٢/٤ حديث (٢٨٧٢)

(2) ينظر: عمدة القارئ ١٦٢/١٤، وشرح رياض الصالحين لمحمد العثيمين ٥٣٤/٣.

سبق ناقة الأعرابي لناقة رسول الله ﷺ العضباء والتي كانت لا تُسبَق ولا تُغْلَب، والتذكيرُ بحقيقة إلهية من سنن الله في الخلق؛ حتى لا يركنوا إلى المباهاة والمفاخرة.. ومن بلاغة الخبر أنه جاء عاماً ومؤكدا؛ ليشمل الحكم كل ما ارتفع عن غيره من نظرائه بأي رفعة كانت. (١)

وهذا البيان النبوي الذي ورد في الحديث الشريف لا يُعلّم حقيقة مجردة؛ وإنما يعالج النفوس ويهذبها ويربيها على منهج الله وسنته في الخلق، فالمسلم إذا استقر في وعيه وإيمانه أن كل أمور الدنيا مبنية على النقصان وعدم الدوام والارتفاع؛ فإن ذلك لا محالة يجعل نفسه مطمئنة مستقرة، ويبعده عن المباهاة والمفاخرة التي تورث الكبر والغرور.

الحث على رباط الخيل في سبيل الله.

روى مسلم في صحيحه " **عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَلْوِي نَاصِيَةَ فَرَسٍ بِإِصْبَعِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: " الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ**" (٢)

أراد الرسول ﷺ أن يُرَغّب في رباط الخيل المعدّ للغزو في سبيل الله، فلم يسلك مسلك الخبر القولي المجرد؛ وإنما سلك مسلك انتهاز الفرصة والجمع بين الصورة الحسية المشاهدة والمعنى المقرر، فجاء بيانه الفعلي مصاحبا لبيانه القولي؛ زيادة في إيضاح المعنى وتقريره وتمكينه في نفوس المخاطبين.

تأمل وصف الراوي لبيان النبيّ الفعلي: **(رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَلْوِي نَاصِيَةَ فَرَسٍ بِإِصْبَعِهِ)**، أي: يلُفُّ الشعرَ المسترسل على جبهة الفرس بإصبعه، وهذه

---

(١) ينظر: التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير للأمير الصنعاني ٤/٦٩٣.

(٢) صحيح مسلم ٣/١٤٩٣ حديث (١٨٧٢).

الحركة الفعلية لها دلالة بيانية مقصودة تتمثل في تنبيه المخاطبين ولفت انتباههم لما سيلقى عليهم من جهة، ومن جهة ثانية تربط بين الصورة الحسية المشاهدة والمعنى المراد تقريره، يؤكد هذا دلالة الجملة الحالية التي ذكرها الراوي: (... **وَهُوَ يَقُولُ:**).

وقوله ﷺ : **(الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ)** صيغ صياغة تناسب الترغيب والحث على اقتناء الخيل وارتباطها للحرب في سبيل الله.. تأمل أسلوب الإيضاح بعد الإبهام في العبارة النبوية السابقة، وما أثارته جملة الإبهام في قوله ﷺ : **(الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)** من تشويق واستثارة للمخاطبين؛ فعندما نسمع هذه الجملة تذهب النفس كل مذهب في بيان نوع هذا الخير وكيفيته، لاسيما وأن **(أل)** في قوله **(الخير)** تفيد العموم والشمول، وتشتاق كل نفس وتتطلع لمعرفة هذا الخير؛ بل تحفزك وتدعوك لمعرفته حتى يتحقق لها لذة العلم بالشيء بعد الجهل به، لاسيما وأن الأمر المُرَغّب فيه، دائم **(إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)**.. وعندما يأتي قوله ﷺ: **(الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ)** يتضح هذا المبهم، ويتأكد المعنى في النفوس ويحرص كل مسلم غيور على دينه بإعداد الخيل وربطها جهادا في سبيل الله، **(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)** {الأنفال:٦٠}

أرأيت كيف وظف الرسول ﷺ هذا الأسلوب في مقامه توظيفا يدعو المسلمين ويرغبهم في الحرص على ارتباط الخيل؟! وكيف نهض هذا الأسلوب في تهيئتهم وتشويقهم لمعرفة هذا الخير ونوعه، وكيف جاء الإيضاح بعد الإبهام تمكينا للمعنى في نفوسهم؛ فيشتد الحرص والامتثال لما أمرهم به الرسول ﷺ ورغبهم فيه.

والمهم أن كل هذا جاء في لغة قريبة سهلة، ونظم دقيق.. تأمل الاستعارة بالكناية في قوله ﷺ: **(الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ)** وما تدل عليه من المبالغة في لزوم الخير بنواصي الخيل، " فمعنى قَوْله: (مَعْقُود): ملازم لَهَا كَأَنَّهُ مَعْقُود فِيهَا، وَهُوَ من بَاب الِاسْتِعَارَة المكنية، لِأَن الْخَيْر لَيْسَ بمحسوس حَتَّى تعقد عَلَيْهِ الناصية، وَلَكنهُمْ يدْخلُونَ الْمَعْقُول فِي جنس المحسوس ويحكمون عَلَيْهِ بِمَا يحكم على المحسوس مُبَالغَة فِي اللُّزُوم، وَذكر الناصية تَجْرِيد للاستعارة " (١).

وخص النواصي دون غيرها من أجزاء الخيل؛ لِكَوْنِهَا الْمُقَدَّمَ مِنْهَا إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْفَضْلَ فِي الْإِقْدَامِ بِهَا عَلَى الْعَدُوِّ دُونَ الْمُؤَخَّرِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى الْأَدْبَارِ (٢).. وقيل: إن ذكر النواصي من باب المجاز المرسل فهو مِمَّا ذكر مِنْهُ الْبَعْض وَالْمرَاد الْكل (٣).

(١) عمدة القاري ١٤/١٤٣.

(٢) ينظر: فتح الباري ٦/٥٦.

(٣) ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي ١/٤٣٢. وعمدة القارئ ١٤/١٤٣.

وليس المراد بالخيل في قوله ﷺ: **(الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ)** العموم وإن كان ظاهر اللفظ يوحي بذلك؛ بل المراد الخيل المعدة للجهاد والغزو في سبيل الله، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: " **الخَيْلُ لِثَلَاثَةٍ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ، فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأَطَالَ لَهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ، وَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا مِنَ المَرْجِ أَوِ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَلَوْ أَنَّهَا قَطَعَتْ طِيَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، كَانَتْ أَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ، وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَهَا، كَانَ ذَلِكَ لَهُ حَسَنَاتٍ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَسِتْرًا وَتَعَفُّفًا، وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَظُهُورِهَا فَهِيَ لَهُ كَذَلِكَ سِتْرٌ، وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الإِسْلَامِ فَهِيَ وِزْرٌ** " [(١)]

والخير الذي رغب فيه الرسول ﷺ لمن يربطون الخيل في سبيل الله منه ما هو آجل ومنه ما هو عاجل: **(الْأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ)** فأما الخير الآجل فهو ما أعدَّه الله لهم من الثواب والأجر في الآخرة، وأما الأجر العاجل فهو ما يصيبه على ظهرها من الغنائم في الحرب، وفي بطونها من النتاج. [(٢)]

(١) صحيح البخاري ٢٠٨/٤ حديث (٣٦٤٦).

(٢) ينظر: عمدة القارئ ١٤٣/١٤.

المحور الثالث

بلاغته ﷺ في توظيف الإنسان

انتهز الرسولُ ﷺ الإنسانَ -حيَّاً أو ميّتاً، كلَّه أو بعضه- ووظفه لتأكيد بعض المعاني وتقريرها، ومن هذه المعاني:

بيان أن قيمة المرء بعمله وإيمانه لا بهيئة جسده.

روى أحمد في مسنده " **عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ " قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ** " [1]

الفرصة المواتية في هذا الحديث هي تعجب الصحابة وضحكهم من دقة وخفة: (**ساقي الصحابي ابن مسعود** رضي الله عنه).. وقد أراد النبي ﷺ أن ينتهزَ هذه الفرصة، ويستثمرَ هذا الموقف؛ ليبين لهم مقياساً عظيماً للتفاضل والقيمة عند الله تعالى لا سيما يوم الحساب والميزان، وهو أن قيمة المرء بإيمانه وعمله لا بضخامة جسمه، وعظم خِلْقَتِه، وجمال هيئته أو قبحها.

وقد سلك الرسول ﷺ في انتهاز هذه الفرصة وتقرير هذا المعنى مسلكاً بليغاً يحقق المراد ويمكنه في نفوسهم أتم تمكين.. وأول ذلك أنه ﷺ سألهم مقرراً عن سبب ضحكهم من ابن مسعود مع علمه ﷺ بالسبب، فقال: (**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**) وهذا الاستفهام التقريري له دلالته في بناء الكلام وتصعيد المعاني، فقد أراد البليغ ﷺ أن يبني على تقريرهم بالجواب المعنى الذي يريد تأكيده وتمكينه في

(1) مسند أحمد ٩٩/٧ حديث (٣٩٩١)، وصحيح ابن حبان ٥٤٦/١٥ حديث (٧٠٦٩).

أذهانهم.. فلما أقروا بالجواب المطلوب: **(قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ)**؛ ساق الرسول ﷺ المعنى المراد تمكينه، فقال: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ)**.

وقد جاء المعنى المراد تقريره وتمكينه مؤكَّداً بالقسم، وأفعل التفضيل، والتصوير بالحسي المشاهد؛ إشارة إلى أهميته وخطورته؛ لأنه يعالج خطأً في الحكم والمقياس على الناس بحسب هيئتهم الجسمية والشكلية، ويؤسس لمفهوم إسلامي جديد في بيان القيمة والأفضلية يخالف الموروث في إلفهم وعاداتهم الجاهلية، ويبين فضل الصحابي ابن مسعودﷺ.

كما أن التعبير عن المقسم به **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ)** فيه تصريحٌ بأن الإنسان أمر نفسه كله بيد الله، وفيه إشارة إلى أن دقة الساق ونحافتها لا يملكه الإنسان؛ لأنه جزء من الكل الذي بيد الله ولا كسب للإنسان فيه، وفي ذلك لوم أو زجر لطيف لمن ضحك من الصحابة وردٌّ عليهم قبل بيان فضل ابن مسعود.. كما نلاحظ أنه جاء بالمسند إليه ضميراً ولم يأت بالإسم الظاهر في قوله: **(لَهُمَا أَثْقَلُ)**؛ للربط بين الجملة هنا وما سبق؛ إشارة إلى أن الساقين(باعث الضحك والتعجب) هما موضع التكريم والأفضلية وعلو القدر.

وهكذا استطاع البليغ ﷺ أن ينتهز الفرصة المواتية ليصحح المفاهيم، ويرسخ القيم التي تمنع التعجب أو الاستهزاء أو السخرية بالآخرين نتيجة ضعف أجسامهم النحيفة، أو سمنها المفرط، وبهذا يسود الاحترام بين الناس، ويبنى المقياس على أساس الإيمان والعمل.. فهي كما تري بلاغة تجمع بين الإبلاغ والتربية في آنٍ واحدٍ.

الترهيب من عدم التنزه عن البول، والمشي بالنميمة.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ المَدِينَةِ، أَوْ مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» ثُمَّ قَالَ: «بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا» أَوْ: «إِلَى أَنْ يَيْبَسَا»** . (١)

أَطْلَعَ اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ وكشف له بعض الغيبيات؛ تعليماً لأمته، وتحذيراً لها من الوقوع في الكبائر الموجبة للعذاب.. وها هو ﷺ ينتهز فرصة سماعه: (**صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا**)؛ فأراد أن يحذِّر ويرهب من سبب هذا العذاب.. فكيف كان بيانه ﷺ في ذلك؟

أَوَّلُ ما يلقاك من روعة بيانه وبلاغته ﷺ أنه عمد إلى استثمار الملابسات المحيطة، والربط بين المشهد الغيبي الذي كشفه الله له، وبين إثبات العذاب لإنسانين يعذبان في قبريهما، وبيان سبب هذا العذاب.. فالمكان: وسط القبور.. والحدث: سماع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، والصحابة حوله يشاهدون موقع الحدث ويسمعون إخبار النبي ﷺ بالعذاب؛ ولا شك أن توظيف هذه الملابسات وربطها بالقول يجعل المخاطب في قلب الحدث والمشهد، ويؤثر الخطاب فيه تأثيراً شديداً يجعله حريصاً على اجتناب سبب هذا الإثم الموجب

(١) صحيح البخاري ٥٣/١ حديث (٢١٦)، وصحيح مسلم ٢٤٠/١ حديث (٢٩٢).. واللفظ للبخاري.

للعذاب في القبر. وهذه من سمات بلاغة انتهاز الفرصة، وتوظيف الحدث.

وثاني مظاهر هذه البلاغة الدانية، أنه ﷺ عمد إلى التشويق والإثارة في صياغة جملة المطلع، فقال: **(يُعَذَّبَانِ)**، ولا شك أن السامع يتشوق في لهفة ووجل إلى معرفة سبب العذاب.. وتزداد الإثارة واللهفة بجملة النفي التالية: **(وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ)**، ومن جمال الصياغة في هذه الجملة أنه علَّق الجار والمجرور بالفعل المنفي: **(فِي كَبِيرٍ)**؛ إشارة إلى سهولة اجتنابه، وعدم مشقة الاحتراز منه مع عظم إثمه، ولا شك أن النفس تتشوق وتتطلع أكثر لمعرفة هذا الأمر اليسير الذي يوجب العذاب.

وقوله ﷺ: **(- وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ-)** جملة معترضة بين إثبات العذاب لهما في قوله: **(يُعَذَّبَانِ)** وبين ذكر أسباب العذاب في قوله: **(كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ)** والنكتة في الاعتراض هنا: بيان أنه لا مشقة في الاحتراز منهما، ولا رهق في عدم إتيانهما.. (١)

فالرسول ﷺ بنى نظم الحديث كله في قالب أسلوبي رئيس، وهو: الإيضاح بعد الإبهام، فالإبهام جاء في مطلع الحديث: **(يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ)**، والإيضاح جاء في المقصد: **(بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ)**.. ولا يخفى أن النفس عندما يتحقق لها لذة العلم بالشيء بعد الحرمان منه؛ تشعر بلذة الإدراك والمعرفة؛ فيتقرر المعنى في النفس أتم تقرير، ويتمكن منها فضل تمكن.

---

(١) ينظر: شرح الكرماني ٦٨/٣، والبلاغة النبوية للدكتور صباح دراز ص: ١٦٥.

لقد استطاع الرسول ﷺ ببلاغته العالية، ونظمه المحكم، وانتهازه للفرص المواتية؛ أن يُرَهب المخاطبين من إثمين يقع فيهما كثير من الناس، ولا يبالي المرء أن يقترفه، ويظنه هين الشأن، وهو سيئ المغبة، مؤلم العاقبة، وأول ذلك عدم الاستتار وقت قضاء الحاجة، فتبدو للناس من الإنسان عورته كالحيوان البهيم، مع أن الله كرمه على سائر الخلق، فقال: **(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)** {الإسراء:٧٠}، ويفقد حياءه، وتضيع كرامته ويصبح حقيرا شأنه شأن الدواب، أو ألا يحترز من البول فتصيبه النجاسة وتتناثر على جسمه وملابسه فتلوثها وتفسد عليه صلاته وعبادته، ومن ذلك أيضا السعي بين الناس بالنميمة، ونقل الكلام بقصد الإضرار. (١)

والسر في تخصيص عدم الاستتار من البول، والنميمة، بعذاب القبر؛ أن القبر أول منازل الآخرة، وفيه أنموذج لما يقع في القيامة من العذاب.. والمعاصي التي يُعاقب عليها الإنسان يوم القيامة نوعان: حق الله، وحق عباده، وأول ما يُقضى فيه من حقوق الله: الصلاة، ومن حقوق العباد: الدماء، والبرزخ يقضى فيه مقدمات هذين الحقين ووسائلهما، فمقدمة الصلاة الطهارة من الحدث والخبث، ومقدمة الدماء النميمة، فبدأ في البرزخ بالعقاب عليهما. (٢)

ورحمة من النبي ﷺ وشفقة بالرجلين المُعَذَّبين؛ **(دَعَا بِجَرِيدَةٍ، فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً)** والصحابة يرون ذلك بأعينهم،

---

(١) ينظر: المختار من كنوز السنة د/ محمد شوقي خضر ١/٨٧، ٨٨.

(٢) ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني ١/٢٨٧، وكشف اللثام شرح عمدة الأحكام لشمس الدين السفاريني ١/٢٢٥.

فيزدادون تشوقاً وتطلعاً لمعرفة الحكمة من ذلك الفعل، ويسألونه: (**لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟**) فيجيبهم بقوله: (**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا» أَوْ: «إِلَى أَنْ يَيْبَسَا**).. وهذا أسلوب ترجي يوحي بعظم الإثمين وخطورتهما، يدل على ذلك أن الرجاء تعلق بطلب التخفيف مدة بقاء الجريدة رطبة لم تيبس، ولم يتعلق بطلب رفع العذاب.. وهذا التبرك بأثر النبي ﷺ خاص به وبيده الكريمة، لا بالجريد الرطب. (١)

(١) ينظر: فتح الباري ٣٢٠/١، وعمدة القارئ ١١٧/٣.

المحور الرابع

بلاغته ﷺ في توظيف النبات

وظف الرسول ﷺ النبات أو الشجر لتصوير بعض المعاني وتقريرها في أذهان المخاطبين.. وجاءت شواهد هذا المحور أقل من المحاور السابقة، ومن هذه المعاني:

بيان أثر الذكر في محو الذنوب.

روى الترمذي في سننه " **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الوَرَقُ، فَقَالَ:** «**إِنَّ الحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ العَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**» (١)

أثرُ الذِّكر في محو الذنوب وإسقاطها عن العبد، أمرٌ معنويٌّ يحتاج في تصويره وبيانه إلى زيادة تقرير وتوضيح.. والنبي ﷺ أعرف الناس بمواقع الخطاب، ولهذا عمد ﷺ في بيان هذا المعنى إلى بلاغة انتهاز الفرصة، والجمع بين طريقين من طرق الإبانة عن المعنى، حيث جمع بين البيان الفعلي من خلال التمثيل بالصورة الحسية المشاهدة أمام أعين المخاطبين، وبين البيان القولي الواقع في النفس موقع المُؤَكِّد والمُقَرِّر للصورة المشاهدة عياناً.

تأمل بلاغة الرسول ﷺ وانتهازه للفرصة المواتية: (**مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةِ الوَرَقِ فَضَرَبَهَا بِعَصَاهُ فَتَنَاثَرَ الوَرَقُ**).. إن هذا الفعل الحسي المشاهد عياناً، وربطه بالقول المؤكَّد: (**فَقَالَ: إِنَّ الحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛**

(١) سنن الترمذي ٥/٤٣٤ حديث (٣٥٣٣).. حسنه الألباني.

لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ العَبْدِ كَمَا تَسَاقَطَ وَرَقُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ)؛ ليقع في النفس موقع الأنس والقبول والتأكيد والتقرير.

ولا شك أن الرسول ﷺ قرَّب المعنى إلى الأذهان بصورة حسية من واقع البيئة المحيطة التي لا تكاد تنفك صورتها عن المخاطبين، وألبس المعنى الثوب اللائق به، وأتى في بيانه بما لا مزيد عليه، وأراهم بطريقة عملية مشاهدة تَسَاقُط الذنوب عن العبد بفضل الذكر، كما يتساقط ورق الشجرة اليابسة عندما تُضرب بالعصا.. ولو ذهب بليغ ما يطلب المعنى السابق دون أن يسلك مسلك الرسول ﷺ في التمثيل وانتهاز الفرصة؛ لما كان له من عمق الدلالة والمبالغة في تقرير المعنى وتوضيحه، والترغيب في المواظبة على هذا الذكر المخصوص، وبيان فضله.

ولم يقتصر الرسول ﷺ في تأكيد هذا المعنى بالتمثيل والتصوير المُشَاهد عياناً، وإنما أكَّده كذلك بـ(**إِنَّ**)، ولام التأكيد: (**لَتُسَاقِطُ**)؛ زيادة في المبالغة، وتقريراً للمعنى.

بيان أثر الوضوء والصلوات الخمس في محو الخطايا.

روى أحمد في مسنده " **عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: كُنْتُ مَعَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، وَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ فَقَالَ: " يَا سَلْمَانُ: أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟ " قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟ قَالَ: " إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ "، وَقَالَ: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ**

الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود: ١١٤] " [١].

المعنى المراد تقريره في هذا الحديث: هو بيان أثر الوضوء والصلوات الخمس في محو الخطايا والذنوب، وقد سلك الرسول ﷺ في تقرير هذا المعنى مسلكاً في غاية البلاغة والإبداع؛ حيث عمد إلى انتهاز الفرصة، والجمع بين البيان الفعلي والقولي؛ تشويقاً وتهيئة للمخاطب، وتقريراً للمعنى في ذهنه، وترغيباً في الحرص على فضائل الأعمال.

لاحظ حكاية الراوي ووصفه لفعل الرسول ﷺ : **(هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَأَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ)**، وهذا البيان الفعلي له دلالات مقصودة، منها تشويق المخاطب وإثارته لمعرفة الحكمة من هذا الفعل، ولفت انتباهه لمشاهدة الصورة الحسية الماثلة تمهيداً لربطها بالمعنى المراد تصويره وتقريره.

ولم يكتف الرسول ﷺ بهذا التشويق والتنبيه الذي يثير النفس ويبعثها على الفكر؛ وإنما بالغ في تصعيد التشويق والتهيئة للمخاطب بهذا النداء: **(يَا سَلْمَانُ)** ثم أتبعه بالاستفهام الداعي للتفسير والبيان والتعليم: **(أَلَا تَسْأَلُنِي لِمَ أَفْعَلُ هَذَا؟)**، وهذا التصعيد في التهيئة والتنبيه من سمات بيانه ﷺ في التمهيد للأمور المهمة والخطيرة.. ولمّا أجاب سلمان الفارسي طالباً ومتلهفاً لمعرفة الحكمة من فعل الرسول ﷺ بالغصن اليابس: **(قُلْتُ: وَلِمَ تَفْعَلُهُ؟)**؛ عندئذٍ ساق الرسول ﷺ المعنى وقد صادف نفسا مهيأة لتلقيه، فقال: **(إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ، كَمَا يَتَحَاتُّ هَذَا الْوَرَقُ)**، ولا شك أن المعنى إذا جاء عقب التمثيل الحسي المشاهد عياناً؛ كان ذلك أقوى تأثيراً في

---

[١] مسند الإمام أحمد ٣٩/١١١ حديث (٢٣٧٠٧).

النفس، وأدعى لتمكين المعاني وتقريرها في الذهن، وأرغب في الحرص على إسباغ الوضوء وأداء الصلوات الخمس؛ رغبة في محو الخطايا والذنوب.

إن الرسول ﷺ أراد أن يعلّم سلمان الفارسي أثر إسباغ الوضوء وأداء الصلوات الخمس في محو الخطايا، وهذا أمر معنوي، لا ينهض به الإخبارُ المجردُ عن انتهاز الفرصة، وقد أدرك هذا المعلم الأول ﷺ ، فالتمس له فرصةً مواتية، وصورة حسية مشاهَدَةً تقربه إلى الذهن، وتمكنه في النفس، وتعلمه بطريقة عملية؛ فربط بين الفعل والقول، والصورة المُمَثَّلة والمعنى المقرر، وقد برز أثر هذا الأسلوب التعليمي في المخاطب، تلحظ هذا في قول الراوي: (**هَكَذَا فَعَلَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ**)، دون أن يقول مثلاً: هكذا فعل بغصن الشجرة اليابسة، وكأن الصحابي أدرك أن الرسول فعل هذه الوسائل البيانية لإيصال المعنى له في صورة تامة مؤثرة، وهذا التأثير هو ما حدا بسلمان الفارسي أن يسلك ذات المسلك البياني مع صحابي آخر وهو (أبو عثمان) راوي الحديث.

وزيادة من النبي ﷺ في تقرير المعنى المراد وتمكينه في ذهن المخاطب؛ أتبع البيان المحمدي بدليل قرآني، وهو قوله تعالى: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}** [هود: ١١٤].

والمتأمل في هذا الشاهد وسابقه يلحظ أن هناك فرقاً بين الحديثين في المسلك البياني رغم اتحادهما في الفرصة المُستَثْمَرة، وهي: (الشجرة).. ومن هذه الفروق أنه ﷺ بالغ في تصعيد وسائل التشويق والتهيئة في الحديث الثاني، بينما اكتفى في الشاهد الأول بالبيان الفعلي المتمثل في ضرب الشجرة اليابسة بعصاة فتناثر منها الورق؛ وهذا يدل على أهمية المعنى المراد في الشاهد الثاني، وكان

من صنعته ﷺ تصعيد وسائل التهيئة مع المعاني المهمة، يؤكد هذا أنه عبر عن الأثر الناتج من المعنى الأول بقوله: **(لَتُسَاقِطُ مِنْ ذُنُوبِ العَبْدِ)**، لاحظ قوله: **(لَتُسَاقِطُ)** و **(مِنْ)** و **(ذُنُوبِ)**، فالمحو هنا ليس محواً تاماً وكاملاً وإنما هو بعضٌ من ذنوب العبد، ولاحظ التعبير بلفظة الذنوب دون الخطايا أو الكبائر مثلاً، وهذا الأثر في المحو لبعض الذنوب يتناسب مع سهولة الفعل المطلوب، فهو ذِكْرٌ قوليٌّ باللسان لا يتطلب مجاهدة في الأداء، وإن كان عظيماً باعتبار المذكور ﷻ .

بينما عبر عن الأثر الناتج من المعنى الثاني بما يناسب أهميته، ومشقة أدائه، فقال: **(تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ)**، لاحظ التعبير بلفظ: **(تَحَاتَّتْ)** وما يدل عليه من المحو التام، ولاحظ أيضاً التعبير بلفظ **(خَطَايَاهُ)** دون لفظ ذنوبه مثلا، وما يوحي به ذلك من عظم الأثر تبعاً لعظم الفعل. ولا يخفى أنَّ المداومةَ على إسباغ الوضوء **(فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ)** والحرصَ على أداء **(الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ)** أكثرُ مجاهدة من المعنى الأول، وأشقُ على النفس؛ فالأول عبادة قولية باللسان، والثاني عبادة فعلية بالجوارح واللسان؛ ولهذا ناسب الأثرُ والجزاءُ الفعلَ فيهما.

ومن الفروق بين الحديثين في طريقة الأداء؛ أن الرسول ﷺ في الحديث الأول ضرب الشجرة اليابسة بعصاه فتناثر منها الورق، وهذا الضرب بالعصا مناسبٌ لهيئة الرسول التي كان عليها وهي المرور: **(مَرَّ بِشَجَرَةٍ يَابِسَةٍ)**، ومناسب أيضاً لسهولة المعنى المقرر، وكأنَّ أثر الذكر في محو الذنوب يشبه أثر الضرب بالعصا على الشجرة اليابسة من حيث سهولة الفعل ومن حيث التساقط والمحو.. أما الحديث الثاني فلم يضرب بعصاةٍ ونحوها، وإنما **(أَخَذَ مِنْهَا غُصْنًا يَابِسًا، فَهَزَّهُ حَتَّى تَحَاتَّ وَرَقُهُ)**، وهذا الفعل يتناسب مع هيئة

الرسول التي كان عليها، وهي الجلوس تحت الشجرة: **(وَأَنَا مَعَهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ)**، ويتناسب كذلك مع حاجة المعنى المراد تقريره من مجاهدة ومداومة على الوضوء والصلوات؛ فكل فعل جاء مناسباً للمعنى المقصود منه.

ومن أوجه الاتفاق التربوية بين الحديثين أن الرسول ﷺ لم يقتصر على انتهاز الفرصة، وإنما بادر بصنع الفرصة أو بعض أجزائها، وهذا منهج تعليمي وتربوي يحقق تمكين المعاني وتقريرها في النفوس.

المبحث الثاني
بلاغة الرسول ﷺ في توظيف الأحداث والمواقف والمناسبات

ويشتمل على محورين:

المحــور الأول: بلاغته ﷺ في توظيف الأحداث والمواقف الفردية.

المحور الثاني: بلاغته ﷺ في توظيف الأحداث والمواقف الجماعية.

مدخل:

من منهج القرآن الكريم في التربية: توظيفُ الأحداثِ والمواقفِ والاستفادةُ منها في بناء الفرد والمجتمع، والمتأمل في القرآن الكريم يجد كثيراً من الآيات القرآنية نزلت مرتبطة بحدثٍ أو مناسبةٍ معينة، سواءً كانت المناسبة أو الحادثة فرديةً أو جماعية، حرباً أو سلماً، نصراً أو هزيمةً. (١)

وقد جرى الرسول ﷺ على منهج القرآن الكريم في توظيفِ الأحداث والمواقف والمناسبات، والاستفادةِ منها في التربية والتوجيه والإرشاد والتبليغ.. ولا يخفى أن انتهاز الحدث أو المناسبة يثير المتلقي ويشد انتباهه، ويضاعف من تفاعله وانفعاله بالخطاب؛ فيزداد لديه الدافع المعرفي، كما أنه يربطه بالحدث وما

---

(١) ففي سورة آل عمران مثلاً: نجد كثيراً من الآيات القرآنية التي نزلت تعقيباً على معركة أُحُد وهزيمة المسلمين فيها، وكيف استثمر الحق تبارك وتعالى هذه الحادثة في تلقين المسلمين الدروس والعبر التي توجههم في كل زمان ومكان إلى الطريق الذي يوصلهم إلى النصر ليسلكوه، موضحا لهم طريق الفشل ليجتنبوه، داعيا لهم إلى الاعتبار بأحداث الحياة «وكيف أنها تسير على سنن وقوانين علينا أن نطلبها ونسلك السبيل إلى تعلمها، وأن أحداث الحياة ليست مجموعة من المصادفات المتوالية، أو التدفق العشوائي، وإنما للنصر قوانين، وللهزيمة قوانين. ومن الممكن أن ينهزم المسلمون في حرب ولو كان فيهم رسول الله ﷺ إذا ما خالفوا عن أمره، وسلكوا غير سبيل النصر، وأن لهم النصر على عدوهم وإن فاقهم عددا وعدة إذا ما استطاعوا أن يرتفعوا إلى ما فوق فاعلية عدوهم إيمانا وعلما وتنظيما» **[ينظر: سورة آل عمران الآيات: ١٥٢: ١٨٨، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم، د/ محمد سيد طنطاوي ٢/ ١٠]**.

وفي سورة المجادلة تقع حادثة فردية في بيت من بيوت المسلمين، بين رجل وامرأته، وتشتكي إلى الله ﷻ وإلى رسوله ﷺ، فتنزل الآيات معقبة على معان كثيرة في هذا الموضوع، تخرج عن إطار الحادثة الفردية إلى إطار الأمة، وإلى إطار التربية، وإلى إطار الربط بالله سبحانه وتعالى، وأن الله تعالى مطلع على كل شيء ولا يخفى عليه شيئ،{ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} **[المجادلة:٧]**

صاحبه من توجيه وإرشاد؛ فيبقى المعنى المراد صورةً منقوشةً في الذاكرة تستعصي على النسيان.

وقد تنوعت الأحداث والمواقف التي وظفها الرسول ﷺ واستثمرها في تقرير المعاني وتأكيدها، وتناسبت المعاني مع الأحداث تناسباً يجمع بين الإفادة والإمتاع، والتأثير والإقناع.. وسوف نتعرف-بإذن الله- في الصفحات القادمة على أبرز الأحداث والمواقف، وكيف انتهزها الرسول ﷺ في التوجيه والإبلاغ؟ وكيف ربط بين الحدث والمعنى ربطاً حقق الغاية الدينية والتربوية؟ وكيف سلك في بيان ذلك مسلكاً بليغاً وظف الأساليب في حاق موضعها؟

المحور الأول

بلاغته ﷺ في توظيف الأحداث والمواقف الفردية.

استثمر الرسول ﷺ بعض الأحداث والمواقف المؤثرة؛ لتقرير المعاني، أو تربية المسلمين وإرشادهم وتوجيههم إلى منهج الإسلام القويم.. وقد تعددت الأغراض والمعاني المقصودة من الربط بين الحدث والمعنى، ومنها:

تقرير رحمة الله تعالى الواسعة بعباده.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ، تَبْتَغِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»** [1].

يرى الناس ومعهم الرسول ﷺ مشهداً مؤثراً للغاية، يرون وسط السبايا أمًّا أسيرة.. فقدت ولدها الرضيع.. وقد امتلأ صدرها باللبن واحتقن؛ فكانت تسعى كالمجنونة إذا رأت صبياً أخذته فأرضعته تتخفف مما في صدرها من ألمٍ.. وبينما هي على تلك الحال؛ إذْ بالمفاجأة السارة التي تكاد تذهب بالبقية الباقية من عقلها من شدة وقع الفرحة والسرور؛ إذا بها تجد وليدها الذي افتقدته، فتندفع إليه كالسهم مدفوعة بعاطفة الأمومة، فتأخذه، وتلتزمه، وتلصقه ببطنها، وترضعه في حنان لا نظير له.

لقد رأى الناس هذا المشهد الإنساني المؤثر صورة واقعية حية، وعايشوه

(1) صحيح البخاري ٨/٨ حديث (٥٩٩٩)، وصحيح مسلم ٤/٢١٠٩ حديث (٢٧٥٤).. واللفظ لمسلمٍ.

بحواسهم وأحاسيسهم.. لقد رأوا حدثاً يهز النفس الإنسانية هزّاً عنيفا.. رأوا أعظم مثالٍ بشري للحنان والحب والرحمة.. إنه حنان الأم وحبها وحرصها على وليدها.. فهل يُفوّت الرسول ﷺ هذه الفرصة المواتية ويتركها تذهب سُدى بغير توجيه وتبليغ؟! وهل يزهد في انتهازها وتوظيفها وقد تهيأت نفوس الناس وتأثرت بالحدث غاية التأثير؟!

كلا.. فهو ﷺ أبلغ الناس وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأخلصهم لدعوته ورسالته، لم يترك سانحة أو حادثة؛ إلا وانتهزها بصنعة بيانية متفردة في تبليغ دعوته.. لقد أراد الرسول ﷺ أن يستثمر هذا الحدث ويوظفه توظيفاً يرسخ عقيدة دينية تتعلق بذات الله تعالى، وهي: رحمته تعالى الواسعة بعباده، ويصور معنى عقلياً غيبياً في صورة حسية مشاهدة لا مزيد عليها في الوضوح والبيان.. فكيف كان مسلكه ﷺ في ذلك؟

أول ما يروعك من سمت بيانه ﷺ وبليغ صنعته في هذا الحديث، أنه لم يسلك مسلك الإلقاء المباشر للمعنى المراد؛ معتمداً على معايشة المخاطبين وتأثرهم بهذا الحدث، وإنما مهّد للفكرة والمعنى تمهيداً يشوق المخاطبين ويهيئ أذهانهم ونفوسهم لتلقيه-وهذا من خصائص بيانه ﷺ في تقرير المعاني المهمة- فجاء بالاستفهام التقريري: (**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**).. تأمل دلالة الإشارة التي تميّز المشار إليه أكمل تمييز: (**هَذِهِ الْمَرْأَةَ**) أي: هذه المرأة التي فقدت صبيها في الأسر.. ثم وجدته بعد عناء وحرمان وألم وذل.. والتي (**أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ**).. والتي لو استطاعت أن تفديه بنفسها لفعلت.. هل ترون هذه الأم -التي رأيتم من حالها ما رأيتم، وتعرفون من حنانها وحبها ورحمتها ما تعرفون- هل ترونها طارحة ولدها في النار؟ سؤال مثير

ومشوق؛ لذا جاء الجواب بالنفي المؤكد: **(قُلْنَا: لَا، وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ)**.

وهنا يقرر الرسول ﷺ الفكرة التي أراد تقريرها عن (رحمة الله تعالى بعباده) فيقول: **(لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)**.. ولا شك أن الرسول ﷺ قرّر المعنى الغيبي في أذهان المخاطبين بمثالٍ مشاهدٍ محسوس، وعقد " موازنة بين أمرين: أحدهما: رآه المشاهدون لوحة واقعيّة حيّة فيها الرحمة مجسّدة بكل ما يمكن أن تحفل به الدنيا من تجسيد لمعنى الرحمة، والآخر: أمر غيبي يريد الرسول ﷺ تقريره.. فكانت هذه الحادثة والتعليق عليها أقدر في التعبير عن هذا الأمر من ألفاظ لغات الدنيا.. وهذه القمة البشرية للرحمة في دنيا الواقع لا تعدُّ شيئا أمام رحمة الله تبارك وتعالى بعباده: **(لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)**." (١)

ولمّا كانت رحمة الله واسعة لا تُدرك بالعقل البشري القاصر، ولا يمكن الإحاطة بها كليا؛ قرّبها الرسول ﷺ من خلال التمثيل والتشبيه بحال المرأة المذكورة في الحديث، قال ابن حجر: " وَفِيهِ ضَرْبُ الْمَثَلِ بِمَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ لِمَا لَا يُدْرَكُ بِهَا؛ لِتَحْصِيلِ مَعْرِفَةِ الشَّيْءِ عَلَى وَجْهِهِ وَإِنْ كَانَ الَّذِي ضُرِبَ بِهِ الْمَثَلُ لَا يُحَاطُ بِحَقِيقَتِهِ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ لَا تُدْرَكُ بِالْعَقْلِ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَرَّبَهَا النَّبِيُّ ﷺ لِلسَّامِعِينَ بِحَالِ الْمَرْأَةِ الْمَذْكُورَةِ " (٢)

ومن بلاغة النظم والدلالة في قوله ﷺ : **(لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)** بناءُ الجملة في قالب الخبر المؤكّد بعدة مؤكدات؛ حثاً وترغيباً في دخول العباد تحت رحمته الواسعة اختياراً لا اضطراراً، وفتحاً لباب الرجاء أمام النفوس

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي، د/ محمد الصباغ، ص: ٨٨

(٢) فتح الباري لابن حجر ١٠/٤٣١، ومرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري ٨/٨٧.

اليائسة، ودعوةً للتخلق بصفةٍ من صفات الرحمن فيما بينهم وبين غيرهم من المخلوقات.

والإشارة في قوله ﷺ : **(لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)** في نهاية البلاغة؛ لأنها تمكن المعنى وتقرره، وتشرك الحس مع العقل في إدراكه وتصوره.

الزجر والنهي عن الشفاعة في الحدود.

روى البخاري ومسلم وغيرهما " **عَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها: أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمُ المَرْأَةُ المَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا»** [1]

الحدث هو: شفاعةُ (أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) في (المَرْأَةُ المَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ) [2] بعد أن رُفِعَ أمرها إلى رسول الله.

(١) صحيح البخاري ٨/١٦٠ حديث (٦٧٨٨)، وصحيح مسلم ٣/١٣١٥ حديث (١٦٨٨).. واللفظ للبخاري.

(٢) المرأة المخزومية: هِي فَاطِمَة بنت الْأسود بن عبد الْأسد بن عبد الله بن عمر بن مَخْزُوم، وَهِي بنت أخي أبي سَلمَة بن عبد الْأسد الصَّحَابِيّ الْجَلِيل الَّذِي كَانَ زوج أم سَلمَة قبل النَّبِي ﷺ ، قتل أَبوهَا كَافِرًا يَوْم بدر قَتله حَمْزَة بن عبد الْمطلب. (عمدة القاري ٢٣/٢٧٧).

وكان من الممكن أن يكتفي الرسول ﷺ في الرّد على أُسَامَة بْن زَيْدٍ بالاستفهام الإنكاري التوبيخي: **(أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟)**، وهذا الأسلوب كافٍ في الزجر والنهي عن الشفاعة في الحدود لا سيما إذا رُفع الأمر إلى الحاكم وصار الحدُّ حقاً لله، ومعلومٌ أنَّ حدود الله إذا بلغت الحاكم فليس لها مترك، كما بين ﷺ فيما رواه ابن عمر: " **مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَدْ ضَادَّ اللهَ في أَمْره** " [١]

لكنّ الرسول ﷺ أراد أن ينتهز هذه الفرصة المواتية، وأن يستثمر هذا الحدث؛ ليعلّم الناس جميعاً خطورة الشفاعة في الحدود؛ لما يترتب على ذلك من محاباة وضياع للحقوق، وتفريق بين الناس يفضي إلى الكراهية وهلاك المجتمع والأمم.

وقد سلك ﷺ في انتهاز هذه الفرصة وتوظيف هذا الحدث مسلكاً بليغاً.. وأول ذلك أنه ﷺ **(قَامَ فَخَطَبَ)** وهذا الفعل له دلالة مقصودة؛ أولها: التعظيم لحدود الله، وثانيها: نقل التوجيه والتحذير من الخصوصية الفردية لشخصٍ واحدٍ إلى الناس جميعاً؛ فيبلغ النهي للعامة حتى لا يجترئ أحد على تعطيل حدود الله مهما كان شرفه ومنزلته، ويقف الجميع على خطورة هذا الأمر وعظيم أثره في هلاك الأمم.

ثم بدأ ﷺ كلامه بهذا النداء المُهيّئ والمُشوق لما سيلقيه عليهم: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)**، لاحظ عمومية النداء في قوله: **(النَّاسُ)**.. ثم أتبعه بجملة مُعلِّلةٍ وموضحة لخطورة الشفاعة في الحدود على المجتمع، والتفريق بين الناس في هذا الأمر على أساس الشرف والضعف، فقال: **(إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا**

---

(١) مسند أحمد ٢٨٣/٩ حديث(٥٣٨٥)، وينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى، ص: ٣١٨

إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ).. وقد صاغ ﷺ هذه الجملة بأسلوب القصر الادعائي؛ مبالغة في بيان شدة خطر الشفاعة في الحدود لبعض الناس دون بعض؛ لما يترتب على ذلك من الهلاك والضلال؛ لغياب مبدأ المساواة الذي يعمق الشعور بالعدل، ويحقق الانتماء للدين والوطن.. ولاحظ استخدام الرسول ﷺ لأداة القصر **(إِنَّمَا)** دون غيرها؛ مبالغة في كون السبب الموجب للهلاك هو الشفاعة في الحدود وعدم المساواة بين الناس، دون غيرها من الأسباب.

ويُصَعّد الرسول ﷺ من التعظيم والتفخيم لإقامة حدود الله حتى لا يجترئ أحدٌ على تعطيلها، ويؤسس لمبدأ المساواة بين الجميع، فيقول: **(وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا)**.. تأمل دلالة القسم **(وَايْمُ اللَّهِ)** وما يدل عليه من خطورة الأمر المقسم عليه تبعاً لعظم المقسم به، ولاحظ ضرب المثل بـ **(فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ)**؛ لِأَنَّهَا أَعَزُّ أَهْلِهِ عنده، وَلِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ بَنَاتِهِ حِينَئِذٍ غَيْرُهَا فَأَرَادَ الْمُبَالَغَةَ فِي إِثْبَاتِ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ وَتَرْكِ الْمُحَابَاةِ فِي ذَلِكَ، وَلِأَنَّ اسْمَ السَّارِقَةِ وَافَقَ اسْمَ فاطمة فَنَاسَبَ أَنْ يُضْرَبَ الْمَثَلُ بِهَا. (١) .. وتأمل بلاغة التجريد في قوله: **(لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا)**، مبالغة وتأكيداً في الحرص على إقامة حدود الله بنفسه على أعز أهله.

وقد وقعت هذه الجملة: **(وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ، سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا)** موقعاً حميدا في القلوب والعقول، وذلك لجزالة اللفظ وقربه وعذوبته وخفته، ولأنها تعلّم الناس أنبل مبادئ السيادة والشرف، وأصدق أصول السياسة، وأرشد أصول العمران، وهل ترى أصدق في سياسة الناس من أن

(١) ينظر: فتح الباري ٩٥/١٢، ومرقاة المفاتيح ٢٣٦٦/٦.

يُطَبِّق الحاكم على نفسه وولده ما يطبقه على أضعف طبقات الناس الذين يسوس أمرهم، وأن يقطع هو بيده يد أحب الناس إليه؟ وهل تفيض القلوب بالحب لأوطانها وشعوبها بدافع أفضل من هذا الدافع؟ (١).

التحذير والترهيب من الرشوة وهدايا العمال القائمين على أمر المسلمين

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنِ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسْدٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَةٍ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: " مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ، ثَلاَثًا** " (٢).

الحدث هو: استئثار (ابْنُ الأُتَبِيَّةِ) للهدايا من العمل الذي كُلّف به.. ودخوله على النبي ﷺ قائلاً له –معتقداً جواز الهدية للعمال القائمين على أمور المسلمين–: (**هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي**)!!

ولما كان قبول العمال والولاة للهدايا يفتح باباً للرشوة والمحاباة والتغاضي عن الحقوق؛ انتهز الرسول ﷺ هذه الفرصة المواتية؛ ليُحذّرَ ويُرَهّب من خطورة هذا الفعل، ويستأصلَ داءً خطيراً يمثل انحرافاً فردياً لحالات سلوكية خارجة عن

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى، ص: ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) صحيح البخاري ٧٠/٩ حديث (٧١٧٤)، وصحيح مسلم ١٤٦٣/٣ حديث (١٨٣٢).. واللفظ للبخاري.

روح الشريعة الإسلامية وأخلاقياتها.

وقد سلك الرسول ﷺ في بيان هذا المعنى مسلكاً أسلوبياً مكثفاً؛ يناسب خطورة الفعل وخطورة الأثر المترتب عليه في الدنيا والآخرة.. وأول ذلك أنه ﷺ قام خطيبا في الناس وهذا يوحي بخطورة الأمر وأهميته: **(فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ)**؛ لأن ما يتعلق به الإنكار ليس حادثاً يرتبط بفرد، وإنما يتعلق بمبدأ عام يحفظ سلوك ولاة الأمور في الرعية، ويحفظ مال المسلمين من غلول الخائنين، ولهذا جمع الصحابة وخطبهم، فلم يحدّث فرداً معيناً، بل تحدّث عن فرد شائع؛ ليعم الحكم كل من ولي أمراً للأمة. (١).

ولمّا كان ﷺ مربيا وهاديا يحرص على تهذيب النفوس ومعالجتها، لا فضحها وتشهيرها؛ جاء بالخطاب عاماً رغم أن الحادثة تتعلق بفرد بعينه، فقال: **(مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي؟)** دون تصريح باسمه؛ " لأنّ مُراده ﷺ التحذير من مثل ذلك سواء فيه القائل أوّلاً وغيره، وهذا من مزيد فضله وحسن خلقه" (٢).. والاستفهام هنا أفاد الإنكار في قبول الهدايا للعمال القائمين على أمور المسلمين.

ويُصعّد ﷺ المعنى بأسلوبٍ استفهامي آخر مشحون بالدلالات البلاغية، فيقول: **(فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لا؟)**، وهذا الاستفهام التركيبي يفيد الإنكار والتوبيخ والإبطال؛ فالاستفهام في قوله: **(أَيُهْدَى لَهُ؟)** يفيد الإنكار الإبطالي بمعنى أن الإهداء لن يكون إذا جلس العامل في بيت أبيه وأمه، وفيه تكذيب للعامل وتبكيت له على إجازته أخذ الهدية.. والاستفهام

(١) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/عز الدين السيد، ص: ٣٧٤

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان ٥٢٧/٢

بأم المنقطعة: (أَمْ لا؟)، يفيد التقرير بعدم الإهداء للعامل إذا جلس في بيت أبيه وأمه، مع علم النبي ﷺ بحصول الثاني وانتفاء الأول في هذه الحال؛ إذ لولا العمل ما كانت الهدية، وفي هذا تعيير له وتحقير لشأنه، وتعريض بأنه لولا هذه الولاية لكان فقيراً محتاجاً لا يُلْتَفَتُ إليه، فالهدية ليست لذاته بل لتوليه الولاية، كما أن هذا الاستفهام يكشف العامل أمام نفسه، ويبطل زيف ما برره واستباحه لنفسه من قبول الهدايا، ويستيقن أنّ ما احتبسه باسم الهدية هو مال المسلمين، ويستيقظ من وهمٍ زيَّنَه له الشيطانُ ونفسُه الأمّارةُ بالسوء. (١)

وهذه الجملة الاستفهامية السابقة، " اقتلعت الجذور الملبسة لهذا الموقف، وهو هدايا المسؤولين، ولذلك رُزِقَت شيوعاً، وحفظها العالم والجاهل، ولو تأملت وجدت أن هذا المعنى لا يصل إليه لسان المتكلم بسهولة؛ لأن رسول الله ﷺ لم يناقش الصحابي في الذي قاله، ولم يسأله عن الذي أهداه، وما هي مصلحته من هذه الهدية؟ ولا ماذا فعلت معه حتى أهداك؟ وإنما نفذ إلى هذه المسألة بطريقة ميسرة جداً، وسلك لها سبيلاً واضحاً جداً، وهدمها بدليلٍ قوي جداً " (٢)

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح ١٢٦٩/٤، وكوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري للشنقيطي ٤٦٦/١٢. والحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/عز الدين السيد، ص: ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى، ص: ٢٦٩.

ويبالغ الرسول ﷺ في تصعيد المعنى من خلال الترهيب المؤكد بالقسم في قوله: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ)** ولا يخفى ما في هذا التصوير من إهانة وتحقير وفضح للمرتشي والغال أمام الخلائق.

ويصل الرسول ﷺ إلى ذروة التصعيد للمعنى؛ فيجمع بين البلاغة الفعلية والقولية، ويأتي بأسلوب الاستفهام المكرر ثلاثاً؛ تأكيداً ومبالغة في إبراء ذمته من القصور، وانتقالا للتبعة إلى المخاطبين، وإبطالاً وسداً لكل تأويل أو طريق يؤدي إلى المحاباة، فيقول: **(ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ، ثَلاثًا)**.

وهكذا استطاع الرسول ﷺ أن ينتهز هذا الموقف؛ ليحذّر من الغلول تحذيراً شديداً يتسم بالنبرة العالية المتصاعدة في توظيف الأساليب؛ وليقطع الطريق أمام العمال القائمين على أمور المسلمين في الفساد والمحاباة والمجاملة، ويستأصل داءً خطيراً يهدم الأفراد والمجتمعات والأمم.

ذم الإلحاح في السؤال، والحث على الاستعفاف

روى البخاري في صحيحه " **عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ، أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ ﷺ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى»، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ ، يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى العَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ ﷺ دَعَاهُ**

لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ" [1]

إنّ من أهداف الإسلام أن يرتفع بالنفس عن المذلّة وهوان الاستجداء.. والسؤالُ ذلٌّ، ولو: (أين الطريق؟)، فكيف إذا كان استجداءً لبعض المال؟ وإنّ محمداً ﷺ لَيَجِدُ بعض أصحابه يُلِحُّون ويسألون، ويجيئه **(حَكِيم بْن حِزَامٍ)** سائلاً؛ فينتهز الفرصة- وقد أمكن منها السائل باستجدائه المتكرر- ليعلمه منهج الإسلام في ذم الإلحاح والسؤال؛ طمعاً في الدنيا، ويرغبه في الاستعفاف والزهد فيها؛ رغبة في البركة. [2]

وقد سلك الرسول ﷺ في انتهاز هذه الفرصة مسلك البيان القولي المباشر؛ لأن الحادثة فردية والمخاطب شخص واحد يقف بين يدي رسول الله ﷺ محاوراً.. وقد وظّف الرسول ﷺ الأساليب البلاغية المناسبة التي أبانت حق الإبانة عن المعنى المراد، والتي أثرت في نفس المخاطب تأثيراً بالغاً ظهر أثره

([1]) صحيح البخاري ١٢٣/٢ حديث (١٤٧٢).. (خضرة حلوة) كالفاكهة الخضرة في المنظر الحلوة في المذاق ولذلك ترغبه النفوس وتميل إليه وتحرص عليه. (بسخاوة نفس) بغير إلحاح في السؤال ولا طمع ولا حرص ولا إكراه أو إحراج للمعطي. (بورك له فيه) كثر ونما وكان رزقا حلالا يشعر بلذته. (بإشراف نفس) بإلحاح في السؤال وتطلع لما في أيدي غيره وشدة حرصه على تحصيله مع إكراه المعطي وإحراجه. (كالذي يأكل ولا يشبع) لا يقنع بما يأتيه وأصبح كمن أصيب بمرض الجوع الكاذب الذي كلما ازداد أكلا ازداد جوعا فكلما جمع من المال شيئا ازداد رغبة في غيره وازداد شحا وبخلا بما في يده وحرصا عليه. (لا أرزأ) لا أنقص ماله بالطلب والمعنى لا آخذ. (الفيء) ما أخذ من الكفار من غير قتال.

([2]) ينظر: البيان النبوي، د/ محمد رجب البيومي، ص: ١٨٩

عليه في حياة النبي ﷺ وبعد مماته.

وأول هذه الأساليب استخدام النبي ﷺ للنداء: **(يَا حَكِيمُ)**، وهذا النداء فضلاً عما له من أثر بلاغي في تنبيه المخاطب ولفت انتباهه لكلام النبي ﷺ ؛ فإن له دلالة لطيفة في التصريح باسم المنادى، وهي التعريض بالمخاطب، " وفيه تنبيهٌ وإيماءٌ إلى أنّ هذا الاسم يؤذن بقيامه بالحكمة وهي المعرفة فكأنه قال: يا موصوفاً بالحكمة الداعية إلى الزهادة في الدنيا والإقبال على الآخرة " (١).

ثم ساق الرسول ﷺ الخبر مجملاً ومؤكداً، فقال: **(إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ)**.. لاحظ التأكيد بـ **(إِنَّ)**، واسم الإشارة **(هَذَا المَالَ)** وما يدل عليه من تحقيرٍ ينبئ عنه السياق، وتخصيصٍ بالحكم الوارد في الخبر.. وتأمل بلاغة التصوير في قوله: **(خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ)**، حيث شبه المال في الرغبة والميل إليه وحرص النفوس عليه بالفاكهة التي هي **(خَضِرَةٌ)** في النظر **(حُلْوَةٌ)**، في الذوق وكل منهما يُرغب فيه على انفراده فكيف إذا اجتمعا؟ وَفِيه أَيْضا إِشَارَة إِلَى عدم بَقَائِهِ لِأَن الخضراوات والفاكهة لَا تبقى وَلَا تزاد للبقاء. (٢)

ويجوز أن يكون المراد تشبيه صورة المال بالروضة الخضراء أو الشجرة الناعمة الحلوة المستحلاة الطعم، مِنْ حَيْثُ زَهْرَتِهَا وَبَهْجَتِهَا وَبَهَائِهَا ثُمَّ سُرْعَةَ فَنَائِهَا. (٣)

---

(١) دليل الفالحين ٥٠٣/٤

(٢) ينظر: عمدة القارئ ٥٢/٩، وإرشاد الساري للقسطلاني ٦١/٣، ومرقاة المفاتيح ١٣١٠/٤

(٣) ينظر: إرشاد الساري للقسطلاني ٦١/٣، ومرقاة المفاتيح ١٣١٠/٤

ولعل هذا التأويل الثاني هو الأنسب للسياق من جهة، والأمثل لمنهج القرآن الكريم ومسلكه في تصوير الحياة الدنيا وزينتها بالنبات من جهة أخرى. (١)

ثم لمّا أجمل وصف المال في الجملة الأمّ التي صدّر بها الخبر؛ فصّل وفرّع ورتّب عليها بالفاء أصناف الناس وأحوالهم في طلب المال، فقال: **(فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ)**، أي: من أخذه بِلَا إلحاحٍ في سُؤَالٍ وَلَا إِشْرَافٍ وَلَا طَمَعٍ، أَوْ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ وَانْشِرَاحِ صَدْرٍ مِنَ الْمُعْطِي **(بُورِكَ لَهُ فِيهِ)**؛ لِأَنَّهُ نَاظِرٌ فِي أَخْذِهِ إِلَى رَبِّهِ، مُمْتَثِلٌ لِأَمْرِهِ، قَائِمٌ لِشُكْرِهِ، مُتَقَوٍّ بِهِ عَلَى طَاعَتِهِ، لَا حَظَّ لَهُ فِي قَبُولِهِ إِلَّا رِضَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}** [الطلاق: ٢ – ٣]، وَيُحْمَلُ عَلَى هَذَا الْحَالِ حَدِيثُ «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ». (٢) ، والأولى حمل الضمير باعتبار الآخذ لا باعتبار المُعطِي؛ لأن سياق الحديث وارد في ذم الإلحاح والحث على الاستعفاف في طلب المال، وهذا يناسبه توجيه الخطاب للسائل لا المعطي.

وقد قابل ﷺ هذا الصنف من الناس بصنفٍ آخر مضادٍ له في المنزع والهوى، فقال: **(وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ)**، أي: من أخذه بحرصٍ وطمع فيه، وتَطَلُّعٍ إليه، وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِذِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُعْطِي أَيْ بِكَرَاهِيَتِهِ مِنْ غَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ بِالْإِعْطَاءِ، وَالظَّاهِرُ هُوَ الْأَوَّلُ، كما وجهنا في الصنف السابق. (٣)

وقوله: **(لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ)** الضمير في **(لَهُ)** يرجع إلى الآخذ، وفي **(فيه)**

---

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى، ص: ٢٥٧

(٢) ينظر: عمدة القارئ ٥٢/٩، ومرقاة المفاتيح ٤/ ١٣١٠

(٣) ينظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري ١٣٨/٧

يرجع إلى المال المأخوذ، وإنما لم يبارك له فيه؛ لأنه لم يمنع نفسه عن المسألة التي هي مذمومة شرعًا، ولم يصُنْ ماء وجهه، فعوقب بعدم البركة فيما أخذ. [١]

ولم يقتصر الرسول ﷺ في بيان جزاء هذا الصنف بنفي البركة عنه، وإنما بالغ في ذمه وتشنيع صورته، فوصفه بقوله: **(كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ)**، " شبّه فاعل ذلك بالبهائم التي تأكل ولا تشبع، وهذا غاية الذم له؛ لأن الله تعالى وصف الكفار بأنهم يأكلون كما تأكل الأنعام، يعنى: أنهم لا يشبعون كما لا تشبع الأنعام؛ لأن الأنعام لا تأكل لإقامة أرماقها، وإنما تأكل للشره والنهم " [٢]. وقيل شبّه ما به من شره وطمع بداءٍ معروف عند العرب يسمى بالجوع الكاذب، أو بجوع الْكَلْب، كلما ازْدَادَ أكلا ازْدَادَ جوعا؛ لِأَنَّهُ يَأْكُل من سقم، كلما أكل ازْدَادَ سقما وَلَا يجد شبعا، وَيَزْعُم أهل الطِّبّ أَن ذَلِك من غَلَبَة السَّوْدَاء، ويسمونها: الشَّهْوَة الْكَلْبِيَّة، وَهِي صفة لمن يَأْكُل وَلَا يشْبع.. وكأن هذا الضرب من المرض الذي هو حب المال والحرص عليه والطمع فيه؛ يورث النفس خساسة ودونية، وهذا هو المفهوم من اختيار هذا التشبيه. [٣]

ومن بلاغة النظم أنه ﷺ بنى المقابلة في كل صورة على أسلوب الشرط والجزاء؛ للدلالة على ارتباط الجزاء ودورانه مع متعلق فعل الشرط، فالبركة متحققة في طلب المال بسخاوة نفسٍ وإن كان المال قليلاً، وانعدام البركة واقع في طلب المال بإشراف نفسٍ ولو كان كثيرا.

---

(١) ينظر: شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى» لمحمد الإثيوبي الوَلَّوِي ٣٦٠/٢٢

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٦١/١٠

(٣) ينظر: عمدة القارئ ٥٢/٩ ، وشرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ أبو موسى، ص: ٢٦٣

ثم ختم الرسول ﷺ بيانه بجملة تذييلية مؤكدة لمفهوم ما قبلها، فقال: **(اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى)**، قيل: الْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، والسفلى هي السائلة.. وقيل: اليد المتعففة خير من اليد السائلة؛ لأنّها قد تعالت وترفعت بنفسها عن ذل السؤال، على عكس الأخرى التي حطت من قدر نفسها وكرامتها بما عرّضت له نفسها من المذلة.. والمعنى الثاني هو الأنسب للسياق، قَالَ الْخطابِيّ: " وَقد توهم كثير من النَّاس أَن معنى الْعليا أَن يَد الْمُعْطى مستعلية فَوق يَد الْآخذ، يجعلونه من علو الشَّيْء فَوق الشَّيْء، وَلَيْسَ ذَلِك عِنْدِي بِالْوَجْهِ، إِنَّمَا هُوَ من عَلَاء الْمجد وَالْكَرم، يُرِيد بِهِ الترفع عَن الْمَسْأَلَة وَالتَّعَفُّف عَنْهَا. وأنشدني ابن الأعرابي في معناه:

إِذَا كَانَ بَابُ الذُّلِّ مِنْ جَانِبِ الْغِنَى ... سَمَوْتُ إِلَى الْعَلْيَاءِ مِنْ جَانِبِ الْفَقْرِ

يريد به التعزز بترك المسألة والتنزه عنها" (١)

وقوله ﷺ: **(اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى)** جملة بُورِكَتْ وسَارتْ في أمته ﷺ ، وحفظها أهل ملته، وهي تزهّد في المسألة، ومدّ اليد للأخذ، ثم هي ترغب في الثروة التي يتحقق فيها مدّ اليد بالعطاء، وحسب المال فضلاً أن تكون اليد به أعلى. (٢)

ولما كان انتهازه ﷺ للفرصة قد ناسب محله؛ وبلغت الموعظة من نفس **(حَكِيم بْن حِزَامٍ)** مبلغ التأثير الإيجابي؛ جاءت الاستجابة الفورية من الصحابي الجليل بالتأسف والندم على ما كان منه، ومعاهدة الرسول ﷺ عهداً مؤكداً بالقسم

(١) معالم السنن للخطابي ٢/٧٠، وينظر: فتح الباري ٣/٢٩٧، ومنار القاري شرح مختصر صحيح البخاري حمزة محمد قاسم ٣/٤٥.

(٢) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى، ص: ٢٦٤

العظيم على عدم السؤال وطلب المال، فقال: **(وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا)**.. وقد كان الرجل صادقاً في قوله؛ حيث أراد أبو بكر ومن بعده عمر أن يعطياه نصيبه من الفيء، فأبى في شدة؛ تمسكاً بما قال لرسول الله ﷺ ، وهكذا أثمرت الموعظة إذْ صادفت فرصتها المواتية. [1]

الحث على العمل والطاعة وترك الاتّكال على القدر.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ» ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى}** [الليل:٥-٦] الآيَةَ "[2]

الحدث: اجتماع الصحابة مع رسول الله ﷺ **(فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ)**.. إنها فرصةٌ مواتيةٌ ومناسبةٌ للموعظة والتذكير المؤثر في المخاطبين.. فكيف كان استثمار الرسول ﷺ لها.

([1]) ينظر: البيان النبوي، د/ محمد رجب البيومي، ص: ١٨٩-١٩٠

([2]) صحيح البخاري ٩٦/٢ حديث (١٣٦٢)، وصحيح مسلم ٢٠٣٩/٤ حديث (٢٦٤٧).. واللفظ للبخاري.. (بقيع الغرقد) مقبرة أهل المدينة، وهو المعروف الآن بجنة البقيع، والبقيع موضع من الأرض فيه أصول شجر، والغرقد شجر له شوك كان ينبت في ذلك المكان بكثرة فأضيف إليه.

لعلّ أول مظاهر بلاغته ﷺ في استثمار هذا الحدث المؤثر؛ أنه استخدم بعضاً من الوسائل التعليمية (الفعلية والحركية) التي تشد انتباه المخاطبين، وتدفعهم للتفاعل والتجاوب الشديدين معه فيما يقول.. تأمل وصف الراوي وتصويره للملابسات المصاحبة: **(فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ)**، ولا يخفى أن تحلق الصحابة حول رسول الله ﷺ يجعل حواسهم وعقولهم متوجهة إليه، متنبهة لكل فعل أو قول يصدر منه ﷺ ، وتأمل كذلك ملاحظة الراوي والمخاطبين لما يحمله رسول الله ﷺ : **(وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ)**، أي: عَصا أَوْ قَضِيبٌ يُمْسِكُهُ الرَّئِيسُ لِيَتَوَكَّأَ عَلَيْهِ وَيَدْفَعُ بِهِ عَنْهُ وَيُشِيرُ بِهِ لِمَا يُرِيدُ. (١) وذِكْرُ المِخْصَرة أو العصا هنا؛ ليُرَتّب عليها فعلاً وحركةً للنبي ﷺ سيأتي ذكرها، فيكون الراوي قد مهّد لها تمهيداً يهيئ لمعرفة الدلالة المقصودة من الفعل أو الحركة.

وزيادة في تهيئة المخاطبين وشدّ انتباههم لتلقي الموعظة؛ مهّد المعلم البليغ ﷺ بحركتين أو فعلين يثيران في نفوس المخاطبين التشوق لتلقي المعنى.. تأمل وصف الراوي لحركة النبي ﷺ **(فَنَكَّسَ)**، أَي: خفض رَأسه وطأطأ بِهِ إِلَى الأَرْض على هَيْئَة المهموم المفكر في أمر مهم وخطير، كما هي عادة من يتفكّر في شيء حتى يستحضر معانيه، فيُحتمل أن يكون ذلك تفكرًا منه عليه السلام في أمر الآخرة لقرينة حضور الجنازة، أو فيما أوحي إليه وأبداه بعد ذلك لأصحابه (٢).. ثم تأمل كذلك وصف الراوي لهذا الفعل المصاحب للحركة السابقة: **(فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ)**، وما يدل عليه هذا الفعل من عظم الخطب وجسامته، ولا شك أن هذا البيان الفعلي الذي مهد به الرسول ﷺ لما سيلقيه

---

(١) ينظر: فتح الباري ٤٩٦/١١

(٢) ينظر: عمدة القارئ ١٨٨/٨، وتحفة الأحوذي ١٩٠/٩، وإرشاد الساري ٤٥٤/٢.

عليهم ضاعف من استثارة المخاطبين وتشوقهم لمعرفة الأمر العظيم الذي أهمَّ الرسول ﷺ أو الذي أُوْحِيَ إليه. قال العيني: " فَإِن قلت: مَا معنى النكت بِالْمِخْصَرَةِ؟ قلت: هُوَ إِشَارَة إِلَى إِحْضَار الْقلب للمعاني " (١)

ولما تأكد الرسول ﷺ من تهيئة المخاطبين وشدّ انتباههم وتشوقهم لما سيلقيه عليهم؛ أتبع البيان الفعلي السابق ببيان قولي يؤثر في النفوس المهيأة تأثيراً بالغاً فقال: **(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً)**.. لاحظ بلاغة الرسول ﷺ في توجيه الخطاب: **(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ)**، وما فيه من دلالة على خصوصية الخطاب المستفادة من كاف الخطاب وميم الجمع، والتي تضاعف من تحقق التجاوب والمشاركة والتفاعل بين الرسول ﷺ والمخاطبين، حيث أدخلهم جميعا في دائرة الحوار، وخصهم وعَنَاهم بالكلام، فأتى بـ **(مِنْ)** التي تفيد الاستغراق المستوعب للجميع.. ثم تأمل صياغة العبارة بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء، وما يدل عليه هذا الأسلوب من تأكيد وتمكين للخبر المراد، وهو أَنّ السَّعَادَة والشقاوة خلقٌ لله تَعَالَى، وقدرٌ كتبه على كل نفس دون استثناء لأحدٍ منها، فقد سبق قدرُ الله وكتب على كل نفس مخلوقة مكانَها من الجنة أو النار، وحالها في السعادة أو الشقاء.

وقوله ﷺ : **(مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ)** يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بدلاً من قوله: **(مَا مِنْكُمْ من أحدٍ)**، وَإِلَّا الثَّانِيَةُ بَدَلًا مِنَ الْأُولَى، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ؛ فَيَكُونُ فِيهِ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ وَالثَّانِي فِي كُلٍّ مِنْهُمَا أَعَمُّ مِنَ الْأَوَّلِ. (٢)

---

(١) ينظر: عمدة القارئ ١٨٩/٨

(٢) ينظر: عمدة القارئ ١٨٨/٨، وفتح الباري ٤٩٦/١١.

ولمّا كان هذا الخبر غريباً ومثيراً بالنسبة للمخاطبين، ويفتح باباً للقياس والمطالبات؛ بادره أحد الصحابة بسؤال، فقال: **(يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)**.

وكان مقتضى الظاهر أن يجيب الرسول ﷺ على السائل بقوله: لا تتكلوا وتتركوا العمل؛ لكنه ﷺ أجاب على سؤال السائل بالأسلوب الحكيم، فقال: **(أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى}** [الليل:٥-٦] الآيَةَ).. ذكر الطيبي أن الْجَوَاب مِنَ الْأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ، حيث مَنَعَهُمْ ﷺ عَنْ الاتكال وتَرْكِ الْعَمَلِ وَأَمَرَهُمْ بِالْتِزَامِ مَا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ مِنَ امتثال أمر مولاه، وهو عبوديته عاجلا، وتفويض الأمر إليه آجلا؛ لقوله تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات: ٥٦]، وَزَجَرَهُمْ عَنِ التَّصَرُّفِ فِي الْأُمُورِ الْمُغَيَّبَةِ فَلَا يَجْعَلُوا الْعِبَادَةَ وَتَرْكَهَا سَبَبًا مُسْتَقِلًّا لِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ بَلْ هِيَ عَلَامَاتٌ وأمارات لها، ولا بُدّ في الإيجاب من لطف الله وكرمه أو خذلانه، كما ورد: **(لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ)** (١)

وقال العيني: " لما أخبر ﷺ عَن سبق الْكتاب بالسعادة رام الْقَوْم أَن يتخذوه حجَّة فِي ترك الْعَمَل، فأعلمهم أَن هُنَا أَمريْن لَا يُبطل أَحدهمَا الآخر: بَاطِنٌ هُوَ الْعلَّة الْمُوجبَة فِي حكم الربوبية، وَظَاهر هُوَ التَّتِمَّة اللَّازِمَة فِي حق الْعُبُودِيَّة، وَإِنَّمَا هُوَ أَمارَة مخيلة فِي مطالقة علم العواقب غيرُ مفيدةٍ حَقِيقَةً، وبيَّن لَهُم أَن

(١) ينظر: شرح المشكاة للطيبي ٥٣٨/٢، وفيض القدير ١٢/٢، وفتح الباري ٤٩٧/١١، وتحفة الأحوذي ٢٨٤/٦.

كلاً ميسر لما خلق لَهُ، وَأَن عمله فِي العاجل دَلِيل مصيره فِي الآجل، وَلذَلِك مثّل بقوله تَعَالَى: **{فَأَما من أعْطى وَاتَّقَى}** (اللَّيْل: ٥). وَنَظِيره الرزق الْمَقْسُوم مَعَ الْأَمر بِالْكَسْبِ، وَالْأَجَل الْمَضْرُوب مَعَ التعالج بالطب، فَإنَّك تَجِد الْبَاطِن مِنْهُمَا على مُوجبه، وَالظَّاهِر سَببا مخيلاً، وَقد اصْطَلحُوا على أَن الظَّاهِر مِنْهُمَا لَا يُتْرك للباطن" [١]

فقد ردّ ﷺ ردّا حكيماً، وأعلمهم أن القياس في هذا الباب متروك، والمطالبة عليه ساقطة، وأنه أمر لا يشبه الأمور المعلومة التي قد عقلت معانيها وجرت معاملات البشر فيما بينهم عليها، وأخبر أنه إنما أمرهم بالعمل ليكون أمارة في الحال العاجلة لما يصيرون إليه في الحال الآجلة، فمن تيسر له العمل الصالح كان مأمولاً له الفوز، ومن تيسر له العمل الخبيث كان مخوفاً عليه الهلاك، وهذه أمارات من جهة العلم الظاهر وليست بموجبات فإن الله سبحانه طوى علم الغيب عن خلقه وحجبهم عن دركه، كما أخفى أمر الساعة فلا يعلم أحد متى أبان قيامها؛ ثم أخبر على لسان رسول الله ﷺ بعض أماراتها وأشراطها. [٢]

فحَاصِلُ السُّؤَالِ: أَلَا نَتْرُكُ مَشَقَّةَ الْعَمَلِ فَإِنَّا سَنَصِيرُ إِلَى مَا قُدِّرَ عَلَيْنَا؟ وَحَاصِلُ الْجَوَابِ: لَا مَشَقَّةَ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَهُوَ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ. [٣]

وفي قوله ﷺ : **(وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ)**، تلحظ أنه عبر بالتيسير في جانب الشقاوة، وهذا يحتمل أن يكون المراد منه سَنُهَيِّئُهُ لِلشَّرِّ بِأَنْ

(١) عمدة القارئ ١٨٨/٨.

(٢) ينظر: معالم السنن للخطابي ٣١٨/٤-٣١٩.

(٣) ينظر: فتح الباري ٤٩٧/١١.

نُجْرِيَهُ عَلَى يَدَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَ بِمَا لَا يُرْضِي اللَّهَ، وَيَسْتَوْجِبَ بِهِ النَّارَ، وعلى هذا يكون استعمال التيسير في معناه الحقيقي. (١) ويحتمل أن يكون ذلك على سبيل الاستعارة التهكمية، كما أشار إلى ذلك ابن بطال: " فإن قيل: التيسير إنما يكون للحسنى فكيف جاء للعسرى؟ فالجواب: أنه مثل قوله تعالى: **(فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)** [آل عمران: ٢١] أي: أن ذلك يقوم لهم مقام البشارة " (٢)

وهكذا تجد أن الرسول الهادي ﷺ وظّف هذه الحادثة وانتهز هذا الموقف الذي يُذَكّر بالجنة والنار، أو السعادة والشقاء؛ ليُعلّم المسلمين أموراً مهمة تتعلق بالقدر الإلهي، ومنها: أَن السَّعَادَة والشقاوة بِخلق الله تَعَالَى، وأَن النَّفس المخلوقة إِمَّا سعيدة وَإِمَّا شقية، وَلَا يُقَال: إِذا وَجَبت الشقاوة والسعادة بِالْقَضَاءِ الأزلي وَالْقدر الإلهي فَلَا فَائِدَة فِي التَّكْلِيف، فَإِن هَذَا أعظم شبه النافين للقدر، وَقد أجابهم الشَّارِع بِمَا لَا يبْقى مَعَه إِشْكَال، وَوجه الِانْفِصَال أَن الرب تَعَالَى أمرنَا بِالْعَمَلِ، فَلَا بُد من امتثاله، وغيب عَنَّا الْمَقَادِير لقِيَام حجَّته وزجره، وَنصب الْأَعْمَال عَلامَة على مَا سبق فِي مَشِيئَته، فسبيله التَّوَقُّف، فَمن عدل عَنهُ ضل لِأَن الْقدر سر من أسراره لَا يطلع عَلَيْهِ إِلاَّ هُوَ فَإِذا دخلُوا الْجنَّة كُشف لَهُم. (٣)

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح ١/١٥٨

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٣/٤٤٠

(٣) ينظر: عمدة القارئ ٨/١٨٩.

المحور الثاني

بلاغته ﷺ في توظيف الأحداث والمواقف الجماعية

وظّف الرسول ﷺ بعض الأحداث والمواقف والمناسبات الجماعية؛ لتقرير المعاني والأحكام الشرعية، أو لتقويم الأخطاء وتصحيحها، أو لتعليم المسلمين وإرشادهم وتوجيههم إلى أمور دينهم.. وقد تعددت الأغراض والمعاني المقصودة من الربط بين الحدث والمعنى، ومنها:

تغليظ وتعظيم حرمة الدماء والأموال والأعراض والتحذير منها

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭬ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ** "، **قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»، فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ:** " **اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﭬ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ، فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ** " [1]

المناسبة والحدث: خطبةُ النبي ﷺ في حَجّة الوداع يوم النّحر.. إنّها مناسبةٌ جمعت بين عظمة الظرف المكاني والظرف الزماني.. مناسبةٌ حظيت بأكبر جمعٍ حاشد أتيح لمحمد ﷺ أن يخطب فيه؛ فقد حُشِدَ من حُجّاج القبائل ما لم يتيسر جمعه قبل ذلك؛ إذ أتت الخطبة بعدما رسختْ أقدامُ الإسلام، وخطبتْ ودَّه

---

(١) صحيح البخاري ١٧٦/٢ حديث (١٧٣٩)، وصحيح مسلم ١٣٠٥/٣ حديث (١٦٧٩).. واللفظ للبخاري.

ﷺ الوفودُ متحدثةً بلسان القبائل، وأدرك الجاحدون من المشركين أن نجم الإسلام قد تألّق وازدهر.. وهنا يستشعر الرسول ﷺ بحسّه البلاغي، ودوره النبوي، ووظيفته الدعوية؛ أنّ عليه لهذا الجمع عبء الإبلاغ؛ ليخرج من التبعة أمام ربه، وأي إبلاغ ذلك؟ إنه إبلاغ عظيم يناسب عظمة الموقف والزمان والمكان والجموع.. إنه تقرير وتأكيد وتغليظ وتعظيم لحرمة الدماء والأموال والأعراض والتحذير منها. (١)

وقد سلك الرسول ﷺ في انتهاز المناسبة وتأكيد هذا المعنى مسلكاً بليغاً تمثّل في عدة أساليب:

أولاً: تهيئةُ المخاطبين ولفتُ انتباههم لما سيلقيه عليهم من خلال أسلوب النداء العام: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)**، وهو خطابٌ لمن كَانَ مَعَه فِي ذَلِك الْوَقْت، وَوَصِيَّةٌ أَيْضا للشاهدين بِأَن يبلغُوا الغائبين كَمَا سيأْتِي (٢).. ثم بالغ الرسول ﷺ في تصعيد التهيئة والتشويق والتنبيه للمخاطبين من خلال توظيف الاستفهام التقريري المتصاعد، فقال: **(أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟»، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟»، قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟»، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ)**.. فقد سَأَلَ عَنْها وَهُوَ عَالِمٌ بِها؛ لِتَكُونَ الْخُطْبَةُ أَوْقَعَ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَثْبَتَ، ولِاسْتِحْضَارِ فُهُومِهِمْ، وَلْيُقْبِلُوا عَلَيْهِ بِكُلِّيَّتِهِمْ وَيَسْتَشْعِرُوا عَظَمَةَ مَا يُخْبِرُهُمْ عَنْهُ (٣).. ومن بلاغته ﷺ في الاستفهام والتمثيل باليوم، وبالشهر، وبالبلد؛ أنه ذكّرهم بحرمة هذه الأزمان والأماكن، وقرّرها في نفوسهم؛ ليبني عليها ما أراد تقريره وتأكيده من حرمة

---

(١) ينظر: البيان النبوي، د/ محمد رجب البيومي، ص: ٨٥

(٢) ينظر: عمدة القارئ ١٠/٧٧

(٣) ينظر: نيل الأوطار للشوكاني ٣/٣٦٦ ، ٥/٩٩.

الدماء، والأموال، والأعراض في قوله: **(فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ.......)** [1].. ومن بلاغة جواب المخاطبين على سؤال الرسول ﷺ أنهم أجابوه على طريقة الأسلوب الحكيم؛ حيث سألهم عن تحديد وتمييز اليوم والبلد والشهر، وكان مقتضى الظاهر أن يكون الجواب: يوم النحر، ومكة، وشهر ذي الحجة؛ لكنهم عدلوا عن هذا الجواب وأجابوا بوصف هذه الثلاثة دون تحديدٍ للمسميات؛ دلالة على شهرتها بهذا الوصف الذي صار علماً عليها تُعرَف وتُميّزُ به.. وَوَصْفُ (اليوم، والبلد، والشهر) بالحرام، مجَازٌ مُرْسلٌ من قبيل قَوْلهم: رجل عدل؛ لِأَن الْحَرَام لَيْسَ عين الْيَوْم، وَإِنَّمَا هُوَ الَّذِي يَقع فِيهِ من الْقِتَال. [2]

ثانياً: الإتيان بالتمثيل القائم على القياس بالمعهود؛ وهذا أبلغ في تقرير وتأكيد حرمة الدماء والأموال والأعراض في نفوس المخاطبين.. تأمل قوله ﷺ : **(فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا)**، قال القسطلاني: " شبّه الدماء والأموال والأعراض في الحرمة باليوم والشهر والبلد؛ لاشتهار الحرمة فيها عندهم، وإلاّ فالمشبه إنما يكون دون المشبه به، ولهذا قدّم السؤال عنها مع شهرتها؛ لأن تحريمها أثبت في نفوسهم، إذ هي عادة سلفهم، وتحريم الشرع طارئ، وحينئذ فإنما شبّه الشيء بما هو أعلى منه باعتبار ما هو مقرر عندهم " [3].. وَقيل مثّل بِالْيَوْمِ وبالشهر وبالبلد؛ لتوكيد غلظ تَحْرِيم مَا حرّم من الدِّمَاء وَالْأَمْوَال والأعراض وللتحذير من

([1]) ينظر: إرشاد الساري ٣/٢٤٠، والتوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن ١٢/١٥١.

([2]) ينظر: عمدة القارئ ١٠/٧٧، وإرشاد الساري ٣/٢٤٠.

([3]) إرشاد الساري ١/١٦٧.

ذلك، وكأن الرسول ﷺ صنع أسواراً من الحرمة بين المسلم وبين هذه المحرمات الثلاثة. (١)

وقد صاغ الرسول ﷺ جملة التشبيه مؤكدة بعدة مؤكدات ضاعفت وصعدت من التأكيد والتقرير في بيان عظم حرمة هذه الأمور الثلاثة.. لاحظ التأكيد بـ**(إنَّ)**، واسمية الجملة التي تفيد الثبوت والدوام.. واستخدام اسم الإشارة: **(هذا)**، إشارة إلى التمثيل بشيء معلوم ومقرر لديهم.. والتكرير المُستَلْزِم لترسيخ المعنى وتأكيده وأهميته، كما ذكر الراوي في قوله: **(فَأَعَادَهَا مِرَارًا)**.

ثالثاً: البيان الفعلي المصحوب بأسلوب التبرئة والمؤكد بالتكرار اللفظي في قوله ﷺ: **(ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ)**، ورفْعُ الرأسِ إلى السماء؛ لأنّها قِبْلَةُ الدعاء، ولإشهاد الله تعالى على إبلاغ دعوته وإتمامها؛ ولهذا أتبع الحركة الفعلية التي ضاعفت من يقظة المخاطبين بأسلوبٍ استفهامي تقريري، أي: قد بلغت ما أمرتني به. وإِنَّمَا قَالَﷺ ذَلِك؛ لِأَنَّهُ كَانَ فرضا عَلَيْهِ أَن يبلغ وَمِنْه سميت حجَّة الْبَلَاغ. (٢)

رابعاً: وتأكيداً لعظم حرمة الدماء والأموال والأعراض وخطورة الأحكام المتعلقة بها، لم يكتف الرسول ﷺ بإبلاغ الحاضرين معه في الحج؛ وإنما أوصى وأمر بأن يُبَلّغ الحاضرُ منهم في المجلس الغائبَ عنه، فقال:**(فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ)**؛ ليَعُمّ البلاغُ الكُلَّ كما هو مقتضى عموم الرسالة إليهم، ولأنه قد يفهم المُبَلِّغُ ما لا يفهمه الحامل من الأسرار والعلوم، وهذا معنى قوله ﷺ : **(فَرُبَّ**

(١) ينظر: عمدة القارئ ١٠/٧٨، وشرح النووي على مسلم ١١/١٦٩.

(٢) ينظر: عمدة القارئ ١٠/٧٨، والكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، لأحمد الكوراني ٤/١٥١.

مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ) أي: أحفظ لمبناه وأفهم لمعناه من سامع سمعه منّي. [1]

خامساً: ثم يختم الرسول ﷺ الخطبة بتحذير ووعيد ونهي شديد، فيقول: **(لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)**، وهذا محمولٌ على التَّشبيه، أي: كالكفار، ومعلومٌ أن المرءَ لا يصير كافرًا بضرب الرقاب، ولكن لما كان شأنُ القتل أن يجري بين مسلم وكافر، لا بين مسلم ومسلم، فمن ضرب رقبة أخيه وقاتل، فقد تشبّه بالكفار، وفعل ما يفعلُهُ الكفار، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم، وهذا هو المختار [2].. والغرض من هذا التشبيه هو التشنيع والتنفير؛ لأن المسلم حريص كل الحرص ألا يوصف بالكفر، أو يُشبّه بالكفار بعد أن هداه الله للإسلام.

وفصل جملة: **(يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ)** عن جملة: **(لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا)**؛ لما بينهما من كمال الاتصال حيث وقعت الثانية بياناً وتوضيحاً للأولى.. قال العيني: " وَقَالَ الطَّيِّبِيّ: (يضْرب بَعْضكُم رِقَاب بعض) جملَة مستأنفة مبيّنَة لقَوْله: (فَلَا ترجعوا بعدِي كفَّارًا) فَيَنْبَغِي أَن يُحمل على الْعُمُوم، وَأَن يُقَال: لَا يظلم بَعْضكُم بَعْضًا، فَلَا تسفكوا دماءكم، وَلَا تهتكوا أعراضكم، وَلَا تستبيحوا أَمْوَالكُم، وَنَحْوه أَي فِي إِطْلَاق الْخَاص وَإِرَادَة الْعُمُوم " [3]

(1) ينظر: مرعاة المفاتيح ٢٩٥/٩.

(2) ينظر: شرح النووي على مسلم ٥٥/٢، وعمدة القارئ ٧٨/١٠.

(3) عمدة القارئ ٧٨/١٠.

الحث على السكينة عند الإفاضة من عرفات، والنهي عن الإسراع

روى البخاري في صحيحه «**عن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ دَفَعَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ وَرَاءَهُ زَجْرًا شَدِيدًا، وَضَرْبًا وَصَوْتًا لِلْإِبِلِ، فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ البِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ»** (١)

من منهج النبي ﷺ في تربية الصحابة وتعليمهم أنه لا يسكت على خطأٍ؛ وإنما ينتهز هذه الأخطاء؛ ليقومها ويصلحها بما يتناسب مع روح الإسلام وقيمه.. وها هو ﷺ يتقدم الحجيج ساعة النفرة من عرفة متوجهاً إلى المزدلفة؛ فيسمع خلفه زجراً شديداً للدواب، وضرباً بالسوط للإبل وصياحاً وحثاً لها على الإسراع؛ ظناً منهم أن الْإِسْرَاعِ والسبق فِي السَّيْرِ مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِهِ.

شاهد الرسول ﷺ هذا الحدث الجماعي، وسمع هذا الصياح والزجر والضرب الذي تتأذى منه الدواب، ورأى تدافعاً وتكلفاً في المسارعة إِلَى الْخَيْرَاتِ والْمَبَرَّاتِ؛ لكنه يَجُرُّ إِلَى الْمَكْرُوهَاتِ والْأَذِيَّاتِ، ولا يتناسب مع استشعار عظمة الموقف والحكمة من مشروعيته وتكليفهم به؛ فأراد ﷺ أن يُعدّل هذا السلوك، وأن يغيّر هذا الفهم الخاطئ؛ فانتهز الفرصة ووظف الحدث؛ لتعليمهم وحثهم على السكينة وعدم المزاحمة والتدافع في أعمال الحج وغيرها، معللاً هذا الأمر بأَنَّ تَكَلُّفَ الْإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ لَيْسَ مِنَ الْبِّرِ، أَيْ مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِهِ، فلَيْسَ السَّابِقُ مَنْ سَبَقَ بَعِيرُهُ وَفَرَسُهُ وَلَكِنَّ السَّابِقَ مَنْ غُفِرَ لَهُ. (٢)

---

(١) صحيح البخاري ١٦٤/٢ حديث (١٦٧١).. و(الإيضاع): هو حمل الدابة على إسراعها في السير.

(٢) ينظر: فتح الباري ٥٢٢/٣، ومرقاة المفاتيح ١٨٠٧/٥.

وقد سلك الرسول ﷺ في بيان هذا المعنى مسلكاً بلاغياً جمع بين البيان الفعلي والقولي.. تأمل وصف الراوي لفعل الرسول ﷺ : **(فَأَشَارَ بِسَوْطِهِ إِلَيْهِمْ)**، وهذه الإشارة لها دلالة بلاغية مقصودة، وهي لفت انتباه المخاطبين وتوجيه أنظارهم وحواسهم نحو رسول الله ﷺ ؛ ليسمعوا عنه ما يقول من أمر مهم.. وكأن المعلم البليغ ﷺ يعلمنا وسيلة تربوية ناجعة في تهيئة الجموع وشد انتباههم نحو المعلم أو الخطيب.

وضاعف ﷺ من تهيئة المخاطبين بهذا النداء العام الشامل: **(أَيُّهَا النَّاسُ)**، ثم أتبعه بالأمر المعلل بما يبرره ويفسره، فقال: **(عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ)**، قال ابن بطال: " إنما نهاهم عن الإيضاع والجري؛ إبقاءً عليهم، ولئلا يجحفوا بأنفسهم بالتسابق من أجل بُعْدِ المسافة، لأنها كانت تبهرهم فيفشلوا وتذهب ريحهم، فقد نهى عن البلوغ إلى مثل هذه الحال" (١)

والنهي عن المسارعة والتسابق والتدافع في مشاعر الحج خاصة، وفي أعمال البر عامة، سلوكٌ إسلامي، ومنهج محمدي، غايته الحفاظ على النفس البشرية وغيرها، ودعوة إلى استحضار الحكمة والمغزى من الشعائر دون الحرص على التسابق والفراغ من آدائها؛ ولهذا كان أمره ﷺ بالتزام السكينة في أعمال البر مُؤكّداً بالباء الداخلة على المأمور به: **(بِالسَّكِينَةِ)**، ومُعلّلاً تعليلاً مؤكداً بنفي البر عن الإسراع والتسابق الذي يتوهمون أن يقربهم إلى الله تعالى.

الحث على الاقتصاد في العبادة، وترك التكلف والغلو

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٤/٣٥٠.

روى البخاري في صحيحه " **عن حُمَيْد بْن أَبِي حُمَيْدٍ الطَّوِيل، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»** (١)

خَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ومنهجُه منهج الوسطية والاعتدال، وَطَرِيقَتُه هي الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ؛ فَيُفْطِرُ؛ لِيَتَقَوَّى عَلَى الصَّوْمِ، وَيَنَامُ؛ لِيَتَقَوَّى عَلَى الْقِيَامِ، وَيَتَزَوَّجُ؛ لِكَسْرِ الشَّهْوَةِ، وَإِعْفَافِ النَّفْسِ، وَتَكْثِيرِ النَّسْلِ.. ومخالفةُ هذا المنهج ابتداعٌ وتشددٌ ورهبانيةٌ ليست من الإسلام ولا من سنته ﷺ في شيء.

وقد سنحت الفرصة المناسبة لتأكيد هذا المعنى وتقريره في نفوس المسلمين.. **فالحادثة أو الموقف:** هي استقلالُ الرهط لعبادة النبي ﷺ ، وافتخارُهم بأنّ أَوَلَّهُم يقوم الليل كلَّه ولا ينام، وأنّ ثانيَهم يصوم الدهر ولا يفطر، وأنّ ثالثَهم يعتزل النساء ولا يتزوج أبداً!!!

فأراد النبي ﷺ أن ينتهز هذه الفرصة المواتية؛ ليُصَحِحَ هذا الفهم الخاطئ ويُقَوّمه، وليعلّم المسلمين جميعاً منهج الإسلام وسنته ﷺ في الوسطية والاعتدال والاقتصاد في العبادة، ونبذ التشدد والتكلف والغلو فيها.

وقد سلك الرسول ﷺ في انتهاز الحادثة مسلكاً بليغاً يجمع بين التعليم

---

(١) صحيح البخاري ٧/٢ حديث (٥٠٦٣).

والتربية؛ وأول ذلك أنه ﷺ مهّد للمعنى بأسلوب الاستفهام التقريري: **(أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا)**، أي: أَأَنْتُمْ، فَحُذِفَتْ هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ الَّتِي لِلتقرير مِنْ قَبْلِ أَنْتُمُ الَّذِي هُوَ الْفَاعِلُ الْمَعْنَوِيُّ الْمُزَالُ عَنْ مَقَرِّهِ عَلَى حَدِّ: **{أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** [المائدة: ١١٦] ، ويحتمل أن تكون الهمزة للإنكار عَلَيْهِمْ، ورفض ما قالوه وفهموه من تكلف وتشدد يخالف منهج الإسلام. (١)، وفي رواية مسلم: **(فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟)** (٢)، ورواية مسلم تدل على خطورة الأمر وأهميته؛ لأنه يتعلق بالمنهج، حيث صعد النبي ﷺ المنبر وخطب في الناس؛ ليكون البلاغ والتقويم عاماً لكل الناس.

ثم شرع الرسول ﷺ في إبطال وردّ ما بنوا عَلَيْهِ زعمهم من أَن المغفور له لَا يحْتَاج إِلَى مزِيد فِي الْعِبَادَة، بِخِلَاف غَيره، فأعلمهم ﷺ ابتداءً أَنه مع كونه لا يبالغ في التشديد في العبادة أَخْشَى لله وَأتقى من الَّذين يشددون، فقال: **(أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ)**، والمعنى: أَنَا أَعْلَمُ بِهِ وَبِمَا هُوَ أَعَزُّ لَدَيْهِ وَأَكْرَمُ عِنْدَهُ، فَلَوْ كَانَ مَا اسْتَأْثَرْتُمُوهُ مِنَ الْإِفْرَاطِ فِي الرِّيَاضَةِ أَحْسَنُ مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ مِنَ الِاعْتِدَالِ لَمَا أَعْرَضْتُ عَنْهُ. (٣)، وقد صاغ ﷺ هذا المعنى مؤكداً بـ **(أَمَا)** وهي حَرْفُ تَنْبِيهٍ وَاسْتِفْتَاحٍ بِمَنْزِلَةِ أَلَا وَيَكْثُرُ قَبْلَ الْقَسَمِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ حَقًّا. (٤) ، ومؤكداً كذلك بالقسم **(وَاللَّهِ)**، وإنّ الداخلة على ياء المتكلم **(إِنِّي)**، ولام الابتداء الداخلة على أفعل التفضيل **(لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ)**،

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح ٢٢٨/١

(٢) صحيح مسلم ١٠٢٠/٢ حديث (١٤٠١)

(٣) ينظر: مرقاة المفاتيح ٢٢٨/١

(٤) ينظر: مرقاة المفاتيح ٢٢٨/١

وصياغة الجملة في قالب الاسمية وما تدل عليه من تحقق هذه الصفات في النبي ﷺ على سبيل الثبوت والدوام.

وبعد أن ساق لهم ﷺ هذا الخبر المُؤَكَّد الذي يبطل علتهم في استقلال عبادته ﷺ اتكالاً على أنه **(قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ)**، والذي يثبت حرص النبي ﷺ على الخشية والتقوى لله؛ استدرك مُحَاجَاً لهم فقال: **(لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ)**، أَيْ: أَنَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، فَيَنْبَغِي عَلَى زَعْمِكُمْ أَوْ فِي الْحَقِيقَةِ أَنْ أَقُومَ فِي الرِّيَاضَةِ إِلَى أَقْصَى مَدَاهُ، لَكِنْ أَقْتَصِدُ وَأَتَوَسَّطُ فِيهَا، فَأَصُومُ فِي وَقْتٍ وَأُفْطِرُ فِي آخَرَ، وَأُصَلِّي بَعْضَ اللَّيْلِ وَأَرْقُدُ فِي بَعْضِهِ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ وَلَا أَزْهَدُ فِيهِنَّ، وَكَمَالُ الرَّجُلِ أَنْ يَقُومَ بِحَقِّهِنَّ مَعَ الْقِيَامِ بِحُقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالتَّفْوِيضِ إِلَيْهِ، وَهَذَا كُلُّهُ لِيَقْتَدِيَ بِيَ الْأُمَّةُ. (١)

ثم ختم ﷺ بيانه بهذا الزجر والتحذير فقال: **(فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)**، أي: من أعرض عن طريقتي، وترك الهَدْيَ النبوي القويم، ومال إِلَى الرَّهْبَانِيَّةِ؛ فإنه خَارِجٌ عَنْ الِاتِّبَاعِ إِلَى الِابْتِدَاعِ. (٢) .. ولا يخفى أن التعبير بقوله: **(مِنِّي)** دون: (منَّا)، في جواب الشرط؛ فيه رعاية لحال الرهط، حتى يكون الترهيب والتحذير شديداً؛ فمن ذا الذي يرضى بأن تُقْطَع الصلة بينه وبين رسول الله، وأن يكون مُبْعَدا ومنفياً من طريقته ومنهجه؟

وَإِنَّمَا كَانَ منهج الإسلام وسطياً مقتصدا في العبادات؛ لِأَنَّ الْمُشَدِّدَ لَا يَأْمَنُ مِنَ الْمَلَلِ بِخِلَافِ الْمُقْتَصِدِ فَإِنَّهُ أَمْكَنُ لِاسْتِمْرَارِهِ، وَخَيْرُ الْعَمَلِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ، وَقَدْ أَرْشَدَ إِلَى ذَلِكَ ﷺ فِي قَوْلِهِ: (إِنّ الْمُنْبَتّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح ٢٢٨/١

(٢) ينظر: نيل الأوطار ١٢٣/٦

أَبْقَى)، ولِأَنَّ إتْعَابَ النَّفْسِ فِيهَا وَالتَّشْدِيدَ عَلَيْهَا يُفْضِي إِلَى تَرْكِ الْجَمِيعِ، وَالدِّينُ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، وَالشَّرِيعَةُ الْمُطَهَّرَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّيْسِيرِ وَعَدَمِ التَّنْفِيرِ. (١)

التشديد في النهي عن التنازع في القدر.

روى الترمذي في سننه " **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي القَدَرِ فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَتَنَازَعُوا فِيهِ** " (٢)

الناسُ متفاوتون في الفهم والإدراك لا سيما في الأمور الغيبية العقدية التي تتعلق بحكمة الله تعالى وإرادته.. والقَدَرُ سرٌّ من أسرار الله تعالى، وطلبُ سر الله مَنهيٌّ عنه، وكذلك مَن بَحَثَ في القَدَرِ لم يُؤْمَنْ أن يَصيرَ جَبْريًا أو قَدَريًا؛ بل العبادُ مأمورون بقَبول ما أمرَهم الشرع من غير أن يطلبوا سرَّ ما لا يجوز طلبُ سرِّه. (٣)

والحديث الذي بين أيدينا يمثل فرصة سانحة لتأكيد هذا المعنى وتقريره في نفوس المخاطبين.. **فالموقف أو الحدث:** تنازعُ الصحابة وتناظُرُهم في شأن القدر؛ كأن يقول أحد المتناظرين: إذا كان جميعُ ما يجري في العالم بقَدَرِ الله تعالى فَلِمَ يُعَذِّب المذنبين؟ ولِمَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ كَمَا قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ؟ وَيَقُولُ الْآخَرُ:

---

(١) ينظر: فتح الباري ١٠٥/٩، ونيل الأوطار ١٢٣/٦

(٢) ينظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي للسيوطي ٤٩٦/١، ومرقاة المفاتيح ١٧٥/١.

(٣) سنن الترمذي ١١/٤ حديث (٢١٣٣) تحقيق: بشار عواد معروف، ومسند البزار ٣٠٨/١٧ حديث (١٠٠٦٣)، والقضاء والقدر للبيهقي ص:٢٩١ حديث (٤٤١).. والحديث حسنه الألباني.

فَمَا الْحِكْمَةُ فِي تَقْدِيرِ بَعْضٍ لِلْجَنَّةِ، وَبَعْضٍ لِلنَّارِ؟ فَيَقُولُ الأولُ: لِأَنَّ لَهُمْ فِيهِ نَوْعَ اخْتِيَارٍ كَسْبِيٍّ. فَيَقُولُ الْآخَرُ: فَمَنْ أَوْجَدَ ذَلِكَ الِاخْتِيَارَ وَالْكَسْبَ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ من التنازع والتناظر المفضي إلى خلل خطير في عقيدة المتنازعين؛ نتيجة خوضهم في سرٍّ إلهي تقصر أفهامهم عن إدراك كنهه.

وبينما الصحابة يتنازعون في القدر؛ إذْ بالرسول ﷺ يخرج عليهم: **(خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ)**، فيسمع هذا التنازع، ويرى هذا الموقف الخطير؛ فيوظفه لتعليمهم وتحذيرهم من عاقبة الخوض في هذا الأمر، وينهاهم نهيا شديداً عن التنازع فيه.

وقد سلك الرسول ﷺ في توظيف هذا الموقف مسلكاً بيانياً كاشفاً ومعبراً عن رفضه وإنكاره ﷺ لهذا التنازع في أمر القدر، وخطورة الخوض فيه، والتشديد في النهي عن التنازع في شأنه.. تأمل وصف الراوي الدقيق لدلالة الحركة التعبيرية: **(فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ)**، ولا شك أن غضب الرسول ﷺ واحمرار وجهه الشريف؛ كناية عن رفضه وكراهيته لهذا الأمر، وتنبيه على خطره وسوء عاقبته.. ولهذا كان غضبه ﷺ غضبا شديداً كما وصف الراوي، نفهم هذا من التعبير بكلمة **(حَتَّى)** الغائية، أي: حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ نِهَايَةَ الِاحْمِرَارِ.. وضاعف من بيان هذا الغضب من خلال التشبيه، فقال: **(حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ)**، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ مَزِيدِ حُمْرَةِ وَجْهِهِ الْمُنْبِئَةِ عَنْ مَزِيدِ غَضَبِهِ. (١)

ولا شك أن حالة الغضب المحمود التي كان عليها الرسول ﷺ عند رؤيته لهذا الموقف، وانعكاس ذلك على وجهه الشريف؛ أثار انتباه المخاطبين، ودلّ

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح ١/١٧٥

دلالة مؤكدة أنّ هناك خطأً فادحاً فيما يتنازعون فيه، وهيأهم للوقوف على هذا الخطأ، وأعدهم لتقبل المعنى المراد تقريره في أذهانهم.. وهذا من بلاغة المربي والمعلم ﷺ في معالجة الأخطاء واستثمار الأحداث والمواقف.

وضاعف الرسول ﷺ من الإثارة والتنبيه من خلال أسلوب الاستفهام الإنكاري: (**أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟**)، أَيْ: أَبِالتَّنَازُعِ فِي الْقَدَرِ أُمِرْتُمْ؟ وَهَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ لِلْإِنْكَارِ، وَتَقْدِيمُ الْمَجْرُورِ لِمَزِيدِ الِاهْتِمَامِ بشأن المشار إليه وكونه منكرا جدا. و(أَمْ) في قوله: (أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟) مُنْقَطِعَةٌ بِمَعْنَى بَلْ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ أَيْضًا تَرَقِّيًا مِنَ الْأَهْوَنِ إِلَى الْأَغْلَظِ، وَإِنْكَارٌ غِبَّ إِنْكَارٍ، يريد: أنه لم يأمركم الله بهذا التنازع في القدر، ولا أنا أرسلت إليكم بهذا؛ فلم التنازع فيه؟، وأيُّ حاجة إليه؟ (١)

وقوله ﷺ : (**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ**)، جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ جَوَابًا عَمَّا اتَّجَهَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لِمَ تُنْكِرُ هَذَا الْإِنْكَارَ الْبَلِيغَ؟ لا سيما أنه جاء مؤكداً بطريق القصر بـ (**إِنَّمَا**)؛ حيث إن " موضوعَ (إنما) على أن تجيءَ لخَبرٍ لا يَجهلُهُ المخاطَبُ ولا يَدفعُ صِحَّتَه، أو لا يُنزَّلُ هذه المنزلةَ ". (٢)

وقوله: (**حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ**) يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ، وَإِهْلَاكَهُمْ كَانَ مِنْ غَيْرِ إِمْهَالٍ، فَفِيهِ زِيَادَةُ وَعِيدٍ، وفيه بيان أن ذلك الإنكار البليغ بسبب هذا العذاب البليغ الذي لا إمهال فيه. (٣)

---

(١) ينظر: شرح المشكاة للطيبي ٥٦٣/٢، ومرقاة المفاتيح ١٧٥/١، وقوت المعتذي ٤٩٦/١.

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، ص:٣٣٠، تحقيق: محمود محمد شاكر.

(٣) ينظر: شرح المشكاة للطيبي ٥٦٣/٢، ومرقاة المفاتيح ١٧٥/١،

ثم صعّد الرسول ﷺ المعنى، وشدّد النهي عن التنازع في القدر، فقال مؤكداً كلامه بالقسم: **(عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَتَنَازَعُوا فِيهِ)** أي: أقسمت عليكم قسم المُوجِب والمُصِرّ على الأمر ألّا تبحثوا في القدر بعد هذا.

ذم الإعراض عن مجلس العلم، والحث على الإقبال عليه

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ»** (١)

<u>الموقف أو الحدث</u>: تباينُ واختلافُ السلوك الفعلي للنفر الثلاثة الذين أقبلوا إلى مجلس رسول الله ﷺ .. حيث أقبل اثنان وأعرض الثالث عن المجلس، ودخل أحد الاثنين في الحلقة فسد فرجة، بينما جلس الآخر خلف الحلقة.. وقد عايش النبي ﷺ والصحابة هذا الموقف؛ وأراد المعلم والمربي البليغ أن ينتهز هذه الفرصة المواتية، ويوظف هذا الموقف والصنيع المتفاوت من النفر الثلاثة؛ ليعلمنا ويرشدنا إلى جزاء كل فعل، مع بيان فضل الإقبال على مجالس العلم والذكر، والتحذير من الإعراض عنها.

وقد سلك الرسول ﷺ في توظيف هذا الموقف مسلك المعلم المربي؛ فربط بين الحدث والمعنى بأسلوب الاستفهام التقريري المُصَدَّر بأداة التنبيه

(١) صحيح البخاري ٢٤/١ حديث (٦٦)، وصحيح مسلم ١٧١٣/٤ حديث (٢١٧٦)

والاستفتاح، فقال: **(أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟)**، ولا شك أن استفتاح الكلام وتصديره بالجمع بين أسلوبي الاستفهام و**(أَلَا)** يدل على عِظَمِ الأمر الذي سيخبر عنه، فضلاً عما في ذلك من التشويق والتنبيه وبعث الاهتمام للمعنى الذي يريد تأكيده وتقريره ﷺ في نفوس المخاطبين.

ثم بدأ الرسول ﷺ في تفصيل وبيان حال النفر الثلاثة، وتفسير جزاء صنيعهم؛ ليعلموا حكم عمل كل واحد منهم في الشرع، فقال: **(أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ)**، أي: لجأ وأقبل إلى حلقة العلم وسدّ الفرجة، ودَخَلَ مجلس ذكره ومنزل أوليائه؛ فكان جزاؤه أن **(آوَاهُ اللَّهُ)** أي: جَازَاهُ بِنَظِيرِ فِعْلِهِ بِأَنْ ضَمَّهُ إِلَى رَحْمَتِهِ، وَرِضْوَانِهِ، وَقَبِلَهُ وقَرَّبَهُ إليه، أَوْ يُؤْوِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى ظِلِّ عَرْشِهِ، فَنِسْبَةُ الْإِيوَاءِ إِلَى اللَّهِ مَجَازٌ لِاسْتِحَالَتِهِ فِي حَقِّهِ؛ لِأَنَّهُ يستلزمُ الْإِنْزَال مَعَهُ فِي مَكَانٍ حِسِّيٍّ، فَالْمُرَادُ لَازِمُهُ وَهُوَ إِرَادَةُ إِيصَالِ الْخَيْرِ، وَيُسَمَّى هَذَا الْمَجَازُ مَجَازَ الْمُشَاكَلَةِ، كَمَا فِي قَوْلِه تَعَالَى: **{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ}** [آل عمران: ٥٤] فسمى مجازاته باسم فعله بطريق الْمشاكلة التحقيقية. وفائدته: بيان الشيء بطريق عقلي مع زيادة التوضيح وتحسين اللفظ. (١)

ومن بديع النظم، ودقة التعبير، وجمال التناغم في العبارة السابقة؛ أنه ﷺ عبر بـ**(أَوَى)** المقصورة في جانب فعل العبد المسلم، بينما عبر بـ**(آوَاهُ اللَّهُ)** الممدودة في جانب الله، وهذا يدل على أن الجزاء أعظم وأوسع وأسرع من الفعل؛ وفي هذا ما فيه من الترغيب والحث في الإقبال على مجالس العلم والذكر.. ثم تأمل كذلك بلاغة الجناس بين **(أَوَى– آوَاهُ)**، فبلاغة (أوى) تدل على السرعة والحرص على القرب من الرسول ﷺ، والإقبال عليه وعلى العلم؛

---

(١) ينظر: عمدة القارئ ٣٣/٢، وشرح القسطلاني ١٦٤/١، ودليل الفالحين ٢٥٤/٧.

لأن (أوى) تجمع بين معاني الإسراع إلى الجلوس، والإقبال والتلقي أكثر من التعبير بغيره، مثل: لجأ، وقعد، وجلس، وغيرها، والصورة الفنية في قوله: **(فأواه الله)** بمعنى أن الله كان أسرع في الاستجابة في تفضله بالرحمة والرضوان؛ لدلالة فاء التعقيب السريع على ذلك. (١)

وأما موقف الرجل الثاني فقد آثر الحياء، وترك المزاحمة في طلب العلم: **(وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ)**، فكان جزاؤه أَن جازاه الله بِمثل فعله، بِأَن رَحمَه وَلم يُعَاقِبهُ، وَهَذَا أَيْضا من بَاب المشاكلة؛ وَذَلِكَ لِأَن الْحيَاء تغير وانكسار يعتري الْإِنْسَان من خوف مَا يذم بِهِ، وَهَذَا محَال على الله تَعَالَى، فَيكون مجَازًا عَن ترك الْعقَاب للاستحياء، فَيكون هَذَا أَيْضا من قبيل ذكر الْمَلْزُوم وَإِرَادَة اللَّازِم. (٢)

فاستحياء الرجل الثاني معناه: تَرَكُ الْمُزَاحَمَة وَالتَّخَطِّي حَيَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْحَاضِرِينَ، أَوِ اسْتِحْيَاءٌ مِنْهُمْ أَنْ يُعْرِضَ ذَاهِبًا كَمَا فَعَلَ الثَّالِثُ.. واستحياء اللَّهُ مِنْهُ: أَيْ رَحِمَهُ وَلَمْ يُعَذِّبْهُ بَلْ غَفَرَ ذُنُوبَهُ، وَقِيلَ جَازَاهُ بِالثَّوَابِ قَالُوا وَلَمْ يُلْحِقْهُ بِدَرَجَةِ صَاحِبِهِ الْأَوَّلِ فِي الْفَضِيلَةِ الَّذِي آوَاهُ وَبَسَطَ لَهُ اللُّطْفَ وَقَرَّبَهُ.. وهذا دليل على استحباب المزاحمة في طلب العلم؛ حثاً وترغيباً فيه. (٣)

وأما موقف الرجل الثالث والأخير، فقد ترك المجلس وذهب مُعرضاً عنه؛ حارماً نفسه من الثواب والهداية: **(وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ)**، وقوله ﷺ : **(فأَعْرَضَ الله عَنهُ)** أَي: جازاه بِأَن سخط عَلَيْهِ، وَهَذَا أَيْضا من بَاب

(١) ينظر: التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، د/ علي صبح، ص:١٨٤

(٢) ينظر: عمدة القارئ ٣٤/٢.

(٣) ينظر: شرح النووي على مسلم ١٥٩/١٤، وتحفة الأحوذي ٤٢٣/٧

المشاكلة، وَذَلِكَ لِأَن الْإِعْرَاض هُوَ الِالْتِفَات إِلَى جِهَة أُخْرَى، وَذَلِكَ لَا يَلِيق فِي حق الله تَعَالَى، فَيكون مجَازًا عَن السخط وَالْغَضَب الْمجَاز عَن إِرَادَة الانتقام.. ثمَّ اعْلَم أَن قَوْله: **(فأَعْرَضَ الله عَنهُ)** مَحْمُول على من ذهب معرضًا، لَا لعذر؛ فمن أعرض عَن نبيهﷺ وزهد مِنْهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِن، وَإِن كَانَ هَذَا مُؤمنا وَذهب لحَاجَة دنياوية أَو ضَرُورِيَّة فإعراض الله عَنهُ ترك رَحمته وعفوه، فَلَا يثبت لَهُ حَسَنَة وَلَا يمحو عَنهُ سَيِّئَة. قلت: وَإِن كَانَ ذَاك منافقاً كَانَ النَّبِي ﷺ اطلع على أمره، فَلذَلِك قَالَ: فأعرض الله عَنهُ. (١)

وهكذا تجد أن الجزاء من جنس العمل في المواقف الثلاثة، فالأول: **(أَوَى إِلَى اللَّهِ فَآوَاهُ اللَّهُ)** والثاني: **(اسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ)** والآخر: **(أَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ)**.. ولا شك أن إسناد الجزاء إلى الله تعالى قد حقق الغرض منه في الترغيب والحث على حضور مجالس العلم والذكر، وفي الترهيب والتحذير من تركها والإعراض عنها.

ومن فصاحة لغته ﷺ قَوْلُهُ فِي الثَّانِي: **(وَأَمَّا الْآخَرُ فَاسْتَحَى)** وهَذَا دَلِيلُ اللُّغَةِ الْفَصِيحَةِ الصَّحِيحَةِ أَنَّهُ يَجُوزُ فِي الْجَمَاعَةِ أَنْ يُقَالَ فِي غَيْرِ الْأَخِيرِ مِنْهُمُ الْآخَرُ؛ فَيُقَالُ حَضَرَنِي ثَلَاثَةٌ: أَمَّا أَحَدُهُمْ فَقُرَشِيٌّ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَأَنْصَارِيٌّ، وَأَمَّا الآخر فتيمي، وقد زعم بعضهم أنه لا يستعمل الآخر إلا في الْآخَرِ خَاصَّةً وَهَذَا الْحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِم. (٢)

ومن جمال النظم والصنعة أنه ﷺ رتب الحديث عن أحوال النفر الثلاثة متدلياً من الأعلى إلى الأدنى؛ فبدأ بأعلاهم وأفضلهم منزلة عند الله؛ ترغيباً وحثاً

(١) ينظر: عمدة القارئ ٢/ ٣٤.

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم ١٤/١٥٩، وتحفة الأحوذي ٧/٤٢٣

فـي التحلـي بفعلـه الموجـب لهـذه المنزلـة، ثـم ثنـى بمـا يليـه فـي الجـزاء، وخـتم بأحطهم وأبعدهم من رحمة الله؛ ترهيباً وتحذيراً من فعله.

المبحث الثالث

بلاغة الرسول ﷺ في توظيف السؤال والحوار

ويشتمل على محورين:

المحـــور الأول: بلاغته ﷺ في توظيف السؤال

المحور الثاني: بلاغته ﷺ في توظيف الحـوار

مدخل:

محمد ﷺ أبلغ داعية عرفته البشرية، وقد أخلص لدعوته ورسالته أيَّما إخلاص؛ حيث شغلت الدعوةُ فكرَه وعقلَه وقلبَه؛ فلم يترك سانحة، أو حادثة، أو سؤالاً، أو حواراً، إلا وانتهزه بذكاء في تبليغ دعوته السامية، ووظّفه بإقناعٍ وتأكيدٍ في تحقيق رسالته العظيمة وأهدافها النبيلة.

وكان من صور بلاغته ﷺ أنّه يوظف سؤال السائل، أو حوار المخاطب؛ فيعدل-أحياناً- عن الجواب المطابق ويجيب على السائل بغير ما يتطلب، ويرد على المخاطب بغير ما يترقب؛ تنبيهاً وإرشاداً للمخاطب إلى الأولى والأهم والأنسب الذي يتفق مع تعاليم الإسلام ومبادئه، وتوجيهاً إلى ما يحقق النفع والفائدة له ولغيره في الدنيا والآخرة.

وهذا العدول في الجواب أو الخروج عن مقتضى الظاهر في الرّد على المخاطب؛من أبلغ صور انتهاز الفرصة وأدقها؛لأنه يأتي في قالب الأسلوب الحكيم،ولا شك " أن إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر طريق للبلغاء يُسْلَكُ كثيراً بتنزيل نوع مكان نوع باعتبار من الاعتبارات"[١]،كما أن هذا العدول يحقق قيمة بلاغية تكمن في مفاجأة المتلقي، وإثارته، وشد انتباهه نحو الدلالة المقصودة من العدول، ومن ثم يتحقق الأثر البلاغي من انتهاز الفرصة وهو التأثير في المتلقي؛لما لهذا المسلك من قدرة كبيرة في تعميق الفكرة وإيقاظ الوعي، وتربية المخاطبين ، وتعليمهم ما يهمهم ، وتسديد تصرفاتهم بالابتعاد عما لا شأن لهم به، وأن ينتبهوا لما هو أليق بحالهم وأهم لهم.

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي، ص: ٣٢٩

كما أن هذا التوظيف البليغ للسؤال والجواب يُعدُّ أمارة دامغة على علو بيانه ﷺ من جهة، وعلى معرفته بأحوال النفوس وطواياها من جهة أخرى؛ حيث " إن هذا الفيض الروحي للكلمات هو الذي أحدث هذا الهدم في داخل النفس الجاهلية، وهو أيضاً الذي أحدث هذا البناء الجديد والتكوين النقيّ لهذه النفس " (١)

وشواهد هذا المبحث كثيرة، (٢) وسوف نتعرف–بإذن الله– في الصفحات القادمة على أبرز شواهد هذه الصورة، وكيف انتهزها الرسول ﷺ في التوجيه والإبلاغ؟ وكيف استثمر السؤال أو الجواب استثماراً حقق الغاية الدينية والتربوية؟

---

(١) قراءة في الأدب القديم، د/ محمد أبو موسى، ص:٢١٦.

(٢) راجع في ذلك: الأسلوب الحكيم في البيان النبوي صوره وأسراره البلاغية، د/ صلاح أحمد رمضان حسين، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط، العدد (السادس والثلاثون) الجزء (الثالث) لعام٢٠١٧ م.

المحور الأول

بلاغته ﷺ في توظيف السؤال

رأى الرسول ﷺ في بعض أسئلة الصحابة أنها عديمة الجدوى، أو قليلة الفائدة؛ إما لكونها عن أمور غيبية استأثر الله – عز وجل – بها لنفسه فلا يطلع عليها أحد، وإما لأن الفائدة التي تتعلق بها لا تضيف جديدا، وإما لكون الجواب عليها لا يناسب حال المخاطب وطبيعته، وإما لغير ذلك من الدواعي.

وهنا يستثمر الرسول ﷺ ببلاغته هذا السؤال، ويعدل عن الجواب المطابق، ويجيب عن سؤال آخر لم يسأله السائل، أو يزيد في الجواب عن مقتضى السؤال، أو يأتي بالجواب أعم من السؤال؛ تنبيها للسائل على الأولى والأهم والأنسب لحاله، " ولا شك أن هذا الضرب من البلاغة ألطف في الرد، وأكرم للمخاطب، وأدل على ذوق المجيب؛ إذ يحمل المخاطب على الرجوع إلى نفسه، ومقارنة السؤال والجواب، واستنباط الحكمة من المفارقة، حتى يوحي إليه التظليل أن السؤال المقدر كان هو الأجدر " (١)

وقد تعددت شواهد هذه الصورة، وتنوعت الأسرار البلاغية الداعية لهذا العدول والانتهاز تبعا لاختلاف السائل وحاله، ومن هذه الأغراض والأسرار:

إرشاد السائل إلى أسباب النجاة وطرقها.

روى أحمد في مسنده، والترمذي في سننه " **عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ** " (٢)

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ عز الدين السيد، ص٣٥٠.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥٧٠/٣٦ حديث رقم (٢٢٢٣٥)، وسنن الترمذي ١٨٣/٤ حديث رقم (٢٤٠٦)، والمعجم الكبير للطبراني ٢٧٠/١٧ حديث رقم (٧٤١).

فقد رأي الرسول ﷺ أن السؤال عن حقيقة النجاة وماهيتها لا يفيد السائل كثيرا؛ فانتهز الفرصة وأجابه عن سؤال آخر لم يسأله؛ تنبيها على أهميته، وإرشادا إلى ما فيه الفائدة له ولغيره، فقال مجيبا عن أسباب النجاة: **(امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ)**.

وهذا الجواب من باب الأسلوب الحكيم، سأل عن حقيقة النجاة، فأجاب عن سببه؛ لأنه أهم بحاله وأولى، وكان من الظاهر أن يقول: حِفْظُ اللسان، فأخرجه على سبيل الأمر الذي يقتضي الوجوب مزيدا للتقرير والاهتمام. (١)

وتلحظ أنه ﷺ حصر أسباب النجاة في ثلاثة أمور، وصاغها في قالب الأمر؛ زيادة في التقرير والاهتمام بها. فالمتمسك بهذه الأسباب المذكورة يَسْلَمُ في الدنيا من أذى الناس، وفي الآخرة من عذاب الله.

وقوله: **(أَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ)** بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ اللَّامِ أَيِ: احْفَظْ لِسَانَكَ عَمَّا لَيْسَ فِيهِ خَيْرٌ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مَعْنَاهُ أَمْسِكْ لِسَانَكَ حَافِظًا عَلَيْكَ أُمُورَكَ، مُرَاعِيًا لِأَحْوَالِكَ، فَفِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّضْمِينِ، وقيل: لَا تُجْرِهِ إِلَّا بِمَا يَكُونُ لَكَ لَا عَلَيْكَ. وَهُوَ حَاصِلُ الْمَعْنَى كَمَا لَا يَخْفَى. وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَيِ: اجْعَلْ لِسَانَكَ مَمْلُوكًا لَكَ فِيمَا عَلَيْكَ وَبَالُهُ وَتَبِعَتُهُ، فَأَمْسِكْهُ عَمَّا يَضُرُّكَ وَأَطْلِقْهُ فِيمَا يَنْفَعُكَ. (٢)

وقوله: **(وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ)** الأمر في الظاهر وارد على البيت، وفي الحقيقة على المخاطب أي: تعرض لما هو سببٌ للزوم البيت من الاشتغال بالله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار. وفي قوله: **(وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ)** ضمَّن

(١) ينظر: شرح المشكاة للطيبي ١٠/ ٣١٢٣، ومرقاة المفاتيح ٣٠٣٩/٧.

(٢) ينظر: شرح المشكاة للطيبي ١٠/ ٣١٢٣، ومرقاة المفاتيح ٣٠٣٩/٧، وشرح مصابيح السنة للإمام البغوي، لابن الملك ٢٤٧/٥ تحقيق: لجنة مختصة من المحققين.

(بكى) معنى الندامة، وعدَّاه بـ **(على)** أي: اندم على خطيئتك باكيا. [1]

وتلحظ أن الرسول ﷺ ترقى في جوابه الحكيم من الأدنى إلى الأعلى؛ حيث بدأ بـ **(حفظ اللسان)**، ثم ترقى إلى **(الخلوة في البيت)**، ثم ترقى إلى **(محاسبة النفس)**؛ وقد أكد العارفون أن المرء لا يصل إلى النجاة إلا إذا تدرج في هذه المسالك التي وضحها الرسول ﷺ ، فقد ذكر المناوي في فيض القدير عن بعض العارفين، قال: " وجدت لساني كلبا عقورا قلّ أن يسلم منه من خالطه فحبست نفسي ليسلم المسلمون من آفاته، وما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل فيها ميدان فكره، فكيف يشرق القلب وصور الأكوان منطبع في مرآته، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع من يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته " [2]

ويحتمل أن يكون الترقي في الحديث من الأهم إلى المهم؛ حيث بدأ بالأهم في تحقيق النجاة، وهو **(حفظ اللسان)**، ويشهد لذلك حديث معاذ رضي الله عنه: **(أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ " فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: " كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا " فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: " ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟)** [3]، فحفظ اللسان رأس النجاة، فقُدّم لهذا، ثم ثنى بـ**(الخلوة)**؛ لأنها نجاة من الفتن التي يكون فيها القاعد خير من القائم والماشي والساعي....

---

(١) ينظر: شرح المشكاة للطيبي ١٠/ ٣١٢٣، ومرقاة المفاتيح ٣٠٣٩/٧.

(٢) فيض القدير للمناوي ١٩٧/٢.

(٣) مسند أحمد ٣٤٥/٣٦ حديث (٢٢٠١٦).

كما قال ﷺ : " **إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا. الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي** ". **قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ:** " **كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ** " (١)

فإذا سلم الناس من لسانه، ويده، بقي ما بينه وبين الله من خطيئة تقتضي التوبة منها.. وهكذا تجد أن الرسول ﷺ انتهز الفرصة ووظف السؤال توظيفاً يقدم علاجا ناجعا ونافعا للنجاة، وقد أجاب السائل جوابا حكيما أثّر في نفسه وأرشده إلى مسالك الهدى والنجاة الصحيحة؛ فكان بيانه ﷺ تقويما للعقول، ودواء للقلوب، ونجاة من الهموم.

إرشاد السائل إلى التعلق بالنافع في الآخرة.

رَوَى التِّرْمِذِيُّ في سننه" **عَنْ ثَوْبَانَ** ﷺ، **قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ}** [التوبة: ٣٤] **كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ: نَزَلَتْ فِي الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، لَوْ عَلِمْنَا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ فَنَتَّخِذَهُ؟ فَقَالَ:** " **أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ، وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ** " (٢)

فقد سأل الصحابةُ رسولَ الله ﷺ عن تعيين أنواع المال النافعة لهم، مثل: الذهب والفضة، والعقار، والنعم، والأقمشة، وغير ذلك من متاع الدنيا.. وقد رأى الرسول ﷺ أن هذا السؤال قليل الفائدة، وأنه لا يتناسب مع طبيعة المسلم الذي ينبغي أن ينشغل بالسؤال عن النافع في دينه وآخرته؛ فانتهز ﷺ الفرصة وعدل عن الجواب المطابق للسؤال وأجابهم بأشياء لا تُعدُّ في عرف الناس من المال،

---

(١) مسند أحمد ٤٣٢/٣٢حديث (١٩٦٦٢).

(٢) سنن الترمذي ١٢٨/٥ حديث رقم (٣٠٩٤).

فقال: **(أَفْضَلُهُ لِسَانٌ ذَاكِرٌ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ، وَزَوْجَةٌ مُؤْمِنَةٌ تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ).**
وهذا " الْجَوَابُ مِنْ أُسْلُوبِ الْحَكِيمِ؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ هَمَّ الْمُؤْمِنِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَعَلَّقَ بِالْآخِرَةِ فَيَسْأَلَ عَمَّا يَنْفَعُهُ وَأَنَّ أَمْوَالَ الدُّنْيَا كُلَّهَا لَا تَخْلُو عَنْ شَرٍّ " (١)

وعَدَّ ﷺ الْمَذْكُورَاتِ مِنَ الْمَالِ؛ لِمُشَارَكَتِهَا لِلْمَالِ أَيْ: فِي مَيْلِ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ إِلَيْهَا وَأَنَّهَا أُمُورٌ مَطْلُوبَةٌ عِنْدَهُ، ثُمَّ عَدَّهَا مِنْ أَصْلِ الْأَمْوَالِ؛ لِأَنَّ نَفْعَهَا بَاقٍ وَنَفْعَ سَائِرِ الْأَمْوَالِ زَائِلٌ. (٢)

وسر الترتيب والتناسب بين هذه الأمور الثلاثة: **(لسان ذاكر – قلب شاكر – زوجة مؤمنة تعينه على إيمانه)**، أن المسلم " إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ بِلِسَانِهِ سَرَى ذَلِكَ إِلَى جَنَانِهِ فَشَكَرَ عَلَى إِحْسَانِهِ، فَقَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مُؤْنِسَةً تُعِينُهُ عَلَى إِيمَانِهِ، وَهَذَا طَرِيقُ الْمُرِيدِينَ وَمَسْلَكُ أَكْثَرِ السَّالِكِينَ " (٣)

ولا شك أن الصحابة والسامعين عندما يقارنون بين سؤالهم وجواب النبي ﷺ يدركون الحكمة من المفارقة والعدول في الجواب، ويتقرر في أذهانهم أنه ﷺ أجابهم بِمَا ذَكَرَ؛ لِأَنَّ الْمَالَ زائل لَا يَنْفَعُ مَالِكَهُ، وَلَا شَيْءَ أبقى وأَنْفَعُ للمرء–لا سيما في الآخرة–مِمَّا ذَكَرَه من هذه الثلاثة.

ولك أن تتلمس البلاغة الدانية في جملة الجواب؛ حيث نكّر ﷺ قوله: **(لسانٌ– قلبٌ– زوجةٌ)** تعظيما لأمرها، وتأكيدا على نفعها. ثم تأمل دلالة التعبير باسم الفاعل **(ذاكر،شاكر،مؤمنة)** وما يوحي به من الثبوت والدوام.

---

(١) حاشية السندي على سنن ابن ماجة، المسمى: كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه١/٥٧١، طبعة: دار الجيل، بيروت.

(٢) ينظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجة، ١/٥٧١.

(٣) مرقاة المفاتيح ٤/١٥٥٦.

إرشاد السائل إلى مقياس التفاضل الصحيح بين الناس.

روى البخاري، ومسلم في صحيحيهما" **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ قَالَ: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ»، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا** " (١)

مقصدُ السائلين من سؤالهم: **(أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟)** أن يُعَيّن لهم النبي ﷺ أشرف الناس نسباً وأصلاً في العرب خاصة؛ لكنه ﷺ صاحبُ دعوة ومنهج، ينبذ العصبية الجاهلية ويحاربها، ويؤسس لمعاني أخلاقية عامة تسع الجميع وتشملهم بمقاييسها الربانية العادلة، ولهذا فقد انتهز الفرصة وعدل عن سؤالهم مع علمه بمرادهم، وأجابهم جواب الحكيم علي ألطف وجه وأوفاه، فقال: **(أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ)**.

فالرسول ﷺ أجاب السائل بغير ما يتطلب، وحمل سؤاله على إرادة العموم؛ تنبيهاً إلى ما ينبغي أن يكون عليه السؤال والجواب، وتوجيها إلى بيان مقياس التفاضل العادل بين الناس اتباعاً لمنهج الحق جل وعلا: **{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}**. [الحجرات:١٣]

وجعل ﷺ التقوى مقياسا للتفاضل؛ لأَنَّ أَصْلَ الْكَرَمِ: كَثْرَةُ الْخَيْرِ، وَمَنْ كَانَ مُتَّقِيًا كَانَ كَثِيرَ الْخَيْرِ وَكَثِيرَ الْفَائِدَةِ فِي الدُّنْيَا وَصَاحِبَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي

(١) صحيح البخاري ٧٦/٦ حديث رقم (٤٦٨٩)، وصحيح مسلم ١٨٤٦/٤ حديث رقم (٢٣٧٨).. واللفظ للبخاري.

الْآخِرَةِ. (١)

ثم تكرر الطلب من السائل بنفي المطابقة بين السؤال والجواب، وكأنه لم يدرك مُراد المجيب من تنبيهه إلى ما هو الأولى، فنقله الرسول ﷺ إلى جواب آخر غير ما طلب قصداً، وكأنه يقول له: إذا أبيت هذا العام فليكن ذلك الخاص لامتداد أصله في النبوة وعراقة عِرْقِه :**(فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ)** (٢)

ثم لمّا لم يجد السائل في الجواب الثاني مطابقة لسؤاله، ولمْ يفطن لما وُجِّه إليه أعاد الطلب للمرة الثالثة، فخاطبه الرسول ﷺ على قدر مراده، فقرره أولا بمطلوبه من السؤال؛ تسجيلا عليه، ثم أجابه ثانية بقوله: **(فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقِهُوا)** (٣)

قال صاحب المرقاة: " فَالْمَعْنَى خِيَارُهُمْ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ أَيْضًا بِهَا- إِذَا فَقُهُوا- بِضَمِّ الْقَافِ، وَقِيلَ بِالْكَسْرِ أَيْ: إِذَا اسْتَوَوْا فِي الْفِقْهِ، وَإِلَّا فَالشَّرَفُ لِلْأَفْقَهِ مِنْهُم، والفقه هو العلم بآدَابَ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامَ الْإِسْلَامِ " (٤)

وإنما سلك النبي ﷺ هذا المسلك في العدول عن جواب السائل ولم يجبه من أول مرة مع علمه به؛ " لأنه لو أجاب بمراد السائل من أول الأمر؛ لما دلَّ جوابه على هذا الشأن الذي يجب أن يتقرر، ولفقدوا من وجه آخر ما أراد أن

---

(١) ينظر: شرح النووي على مسلم، ١٥/١٣٥.

(٢) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ عز الدين السيد، ص٣٥٠

(٣) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ عز الدين السيد، ص٣٥١.

(٤) مرقاة المفاتيح ١/٢٨٤.

يوضحه في هذه المناسبة من كرامة نبي الله يوسف عليه السلام ؛ فكان من ألطف عدوله عن الجواب " [1].

تأكيد الحِلِّ، مع زيادة البيان والفائدة.

روى الإمامُ مالكٌ في الموطأ، وأحمدُ في مسنده " **عن أَبَي هُرَيْرَةَ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»** [2]

مقتضى الظاهر أن يجيب ﷺ بقوله: (نعم) ويسكت؛ لكنه انتهز فرصة السؤال وعدل عن الجواب المباشر إلى ما يفيده ضمنا وزاد في الجواب، فقال: (**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**).. وهذا التوظيف للسؤال والمسلك الحكيم في الجواب يُعدُّ في نهاية البلاغة والبيان؛ لعدة اعتبارات، منها:

أولاً: دفعاً لإيهام أن الجواز مقيدٌ بحالة الضرورة فقط.. قال السيوطي: " وإنما أجابهم بما ذكره، ولم يقل لهم (نعم)؛ لأنه لو قال ذلك لما جاز الوضوء به إلاَّ للضرورة على حسب ما وقع في السؤال، فاستأنف ببيان الحكم لجواز الطهارة به، وزاد في الجواب ما تتم به الفائدة، وذلك من محاسن الفتوى " . [3]

---

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ عز الدين السيد، ص٣٥١.

(٢) موطأ الإمام مالك١/٢٢ حديث (١٢) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ومسند أحمد ١٤/٣٤٩، حديث (٨٧٣٥)

(٣) قوت المغتذي على جامع الترمذي، للسيوطي ١/٧٥، تحقيق: ناصر الغريبي، دكتوراة، جامعة أم القري عام١٤٢٤هـ.

وقال الصنعاني: " فَأَفَادَ ﷺ أَنَّ مَاءَ الْبَحْرِ طَاهِرٌ مُطَهِّرٌ، لَا يَخْرُجُ عَنْ الطَّهُورِيَّةِ بِحَالٍ.... وَلَمْ يَجِبْ ﷺ بِقَوْلِهِ: نَعَمْ، مَعَ إفَادَتِهَا الْغَرَضَ، بَلْ أَجَابَ بِهَذَا اللَّفْظِ؛ لِيَقْرِنَ الْحُكْمَ بِعِلَّتِهِ وَهِيَ الطَّهُورِيَّةُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي بَابِهَا" (١)

<u>ثانياً:</u> الزيادة في الجواب مراعاة لحال السائل وحاجته، فالسائل يجهل حكم ماء البحر، كما أن المسافر في البحر يحتاج إلى الغذاء من أسماكه؛ فجاء الجواب شافياً وافياً، قال الصنعاني:" لَمَّا عَرَفَ اشْتِبَاهَ الْأَمْرِ عَلَى السَّائِلِ فِي مَاءِ الْبَحْرِ أَشْفَقَ أَنْ يَشْتَبِهَ عَلَيْهِ حُكْمُ مَيْتَتِهِ، وَقَدْ يُبْتَلَى بِهَا رَاكِبُ الْبَحْرِ، فَعَقَّبَ الْجَوَابَ عَنْ سُؤَالِهِ بِبَيَانِ حُكْمِ الْمَيْتَةِ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ الْفَتْوَى، أَنْ يُجَاءَ فِي الْجَوَابِ بِأَكْثَرَ مِمَّا سُئِلَ عَنْهُ تَتْمِيمًا لِلْفَائِدَةِ، وَإِفَادَةً لِعِلْمِ غَيْرِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ؛ وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِ الْحَاجَةِ إلَى الْحُكْمِ كَمَا هُنَا؛ لِأَنَّ مَنْ تَوَقَّفَ فِي طَهُورِيَّةِ مَاءِ الْبَحْرِ فَهُوَ عَنْ الْعِلْمِ بِحِلِّ مَيْتَتِهِ -مَعَ تَقَدُّمِ تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ- أَشَدُّ تَوَقُّفًا" (٢).

فهذا التوظيف البلاغي للسؤال درسٌ تربوي من البليغ ﷺ للعالِم والمفتي، بمراعاة حال السائلين، فقد سألوه عن ماء البحر فحسب، فأجابهم عن مائه وعن طعامه؛ لعلمه بأنه قد يعوزهم الزاد في البحر كما يعوزهم الماء العذب، فلما جمعتهم الحاجة منهم انتظمهما الجواب منه لهم؛ فَزَادَ فِي الْجَوَابِ إرْشَادًا وَهِدَايَةً، كَمَا هُوَ حَالُ الْحَكِيمِ الْعَارِفِ بِالدَّاءِ وَالدَّوَاءِ (٣).

---

(١) سبل السلام للصنعاني ٢٠/١

(٢) سبل السلام، للصنعاني ٢٠/١-٢١، وراجع: مرقاة المفاتيح ٤٥٢/١، ومعالم السنن للخطابي ٤٣/١.

(٣) ينظر: معالم السنن للخطابي ٤٣/١، ومرقاة المفاتيح ٤٥٢/١

ثالثاً: دقة الصياغة والنظم في الجواب الحكيم؛ حيث صيغت جملة الجواب في قالب القصر بطريق تعريف الطرفين: **(هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ)**؛ تأكيداً ومبالغة في طهور ماء البحر، وزاد من بلاغة القصر التعبير بصيغة المبالغة فعول: **(الطهور)** بدلاً من اسم الفاعل (الطاهر)؛ للمبالغة في طهارته في كل الحالات.

وفصل جملة: **(الْحِلُّ مَيْتَتُهُ)**، عن الجملة السابقة؛ لاتحادهما التام في الحكم، واجتماعهما على موصوف واحد وهو: البحر. قال العيني: " قوله: **(الحل ميتته)** التقدير: هو الحِلُّ ميتَتُهُ،.... ولما كان بين الجملتين اتصال ومماسة في الحكم فصل بينهما ولم يوصل بالعاطف، لئلا يُشْعِرَ إلى المغايرة" (١).

عموم التحريم لكل شراب مسكر.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **أَنَّ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ البِتْعِ، فَقَالَ: «كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ»** (٢).

رأى الرسول ﷺ أن الجواب المطابق على سؤال السائل لا يحقق فائدة عامة له ولغيره، فمقتضى الظاهر أن يقول ﷺ في الجواب: (حرامٌ)؛ لكنه ﷺ انتهز فرصة السؤال وأجاب جوابا عاما يصلح أن يكون قاعدة فقهية تجري على الألسنة مجرى المثل، فقال: **(كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ)**. وهذا من الجواب الحكيم الذي يجمع في بلاغته بين الإيجاز، وزيادة البيان، مع مراعاة حاجة السائل؛ ولهذا قال النووي: "وهذا من جَوَامِعِ كَلِمِهِ ﷺ وَفِيهِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْمُفْتِي إِذَا

---

(١) شرح سنن أبي داود، للعيني ١/٢٣٢ تحقيق: أبو المنذر المصري.

(٢) صحيح البخاري ٧/١٠٥ حديث (٥٥٨٥)، وصحيح مسلم ٣/١٥٨٥ حديث (٢٠٠١).. و(البتع): بكسر الباء التحتية وإسكان التاء الفوقية، هو نبيذ العسل. وكان أهل اليمن يشربونه.

رَأَى بِالسَّائِلِ حَاجَةً إِلَى غَيْرِ مَا سَأَلَ أَنْ يَضُمَّهُ فِي الْجَوَابِ إِلَى الْمَسْئُولِ عَنْهُ " (١)

وقَالَ الطِّيبِيُّ: " قَوْلُهُ كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ جَوَابًا عَنْ سُؤَالِهِمْ عَنِ الْبِتْعِ يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ مَا أَسْكَرَ وَعَلَى جَوَازِ الْقِيَاسِ بِاطِّرَادِ الْعِلَّةِ" (٢)

فقد انتهز ﷺ الفرصة وأتى بجواب عام شامل، مفاده أنه لا عبرة باختلاف الأسماء، ما دام المعنى واحداً، والحقيقة واحدة، فكل شراب أسكر، فهو خمر محرَّم، من أي نوع أُخِذَ، وهو من حسن بيانه ﷺ بما يسعد البشرية في الدنيا والآخرة. (٣).

(١) شرح النووي على مسلم ١٦٩/١٣.

(٢) شرح المشكاة للطيبي ٢٥٤٩/٨، ومرقاة المفاتيح ٢٣٨٢/٦.

(٣) ينظر: تيسير العلام شرح عمدة الأحكام لعبد الله البسام ص٧٢٧.

المحور الثاني

بلاغته ﷺ في توظيف الحوار

من صور انتهاز الفرصة في البيان النبوي: (توظيف الحوار)؛ حيث يعمد النبي ﷺ في حواراته -أحياناً- إلى العدول عن الظاهر وحمل كلام المخاطب على خلاف مراده، وتلقيه بغير ما يترقب؛ تنبيهاً على أن هذا المعنى الثاني هو الأولى بالقصد والأهم والأنسب له ولغيره، أو تصحيحا للمفاهيم الخاطئة عنده، أو غير ذلك.. ولا شك أن هذا المسلك الحكيم في الرد يدفع المخاطب إلى الإثارة والانتباه، ومعاودة التفكير في الدلالة المقصودة من العدول في المعنى الجديد؛ فيتبين له وجه الصواب، ويتقرر المعنى في ذهنه ويثبت.

وقد تنوعت الأسرار البلاغية في هذه الصورة تبعاً لحال كل مخاطب، وتبعاً للمعنى المقصود من العدول والمخالفة، ومن هذه الأغراض:

النهي عن القطع والجزم بالكرامة والجنة من دون نصٍّ شرعي.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما " **عَنْ سَالِمٍ، مَوْلَى ابْنِ مُطِيعٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ، يَقُولُ: افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ، وَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلاَ فِضَّةً، إِنَّمَا غَنِمْنَا البَقَرَ وَالإِبِلَ وَالمَتَاعَ وَالحَوَائِطَ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَادِي القُرَى، وَمَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ، أَهْدَاهُ لَهُ أَحَدُ بَنِي الضِّبَابِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ، حَتَّى أَصَابَ ذَلِكَ العَبْدَ، فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «بَلْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا» فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِشِرَاكٍ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ، فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :**

«شِرَاكٌ - أَوْ شِرَاكَانِ - مِنْ نَارٍ» (١).

في هذا الحديث حوارٌ بين الصحابة وبين رسول الله ﷺ يتعلق بموت **(مِدْعَمٌ)**، ذلك العبد الذي أصابه سهم غائر بعد غزوة خيبر، **(فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ)**.. فالصحابة ﷺ قطعوا (لمدعم) بالشهادة ودخول الجنة؛ حملاً على الظاهر الذي عاينوه من موته.. فأراد الرسول ﷺ أن يستثمر هذا الحوار، وينتهز هذه الفرصة؛ ليعلمهم ويرشدهم إلى حكم ديني، وهو النهي عن المسارعة في القطع والحكم على الظاهر بالشهادة ودخول الجنة دون نص شرعي.

ولهذا جاء رد الرسول ﷺ مخالفاً لاعتقاهم، وأجابهم بغير ما يترقبون، فقال نافياً لكلامهم: **(بَلْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا)**، وفي رواية مسلم: **(كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ....)**.. والسر البلاغي في هذا العدول وهذه المخالفة في المفهوم والاعتقاد؛ هو إبطال زعم المخاطبين ومعتقدهم، ونهيهم عن المسارعة في القطع والحكم على الظاهر بالشهادة ودخول الجنة لمن ليس أهلاً لها، ودون معرفة للسبب المانع من قبول شهادته، أو دخوله الجنة دون حساب، زيادة على

---

(١) صحيح البخاري ١٣٨/٥ حديث (٤٢٣٤) واللفظ له.. وصحيح مسلم ١٠٨/١ حديث (١١٥).. و(المتاع): كل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه من طعام وأثاث وسلع وأموال ونحوها. (الحوائط): جمع حائط وهو البستان من النخيل. (وادي القرى): اسم موضع بقرب المدينة. (أحد بني الضباب) هو رفاعة بن زيد وبنو الضباب قبيلة والضباب جمع ضب وهو دويبة معروفة في الحجاز. (رحل): ما يوضع على البعير ليركب عليه. (عائر): حائد عن قصده لا يدري من أين أتى. (أصابها): أخذها ونالها. (لم تصبها المقاسم): أي قسمة الغنائم المشروعة لأنه أخذها قبل قسمة الغنيمة فهي غلول أي خيانة. (بشراك): هو سير النعل على ظهر القدم]

الترهيب والوعيد من جريمة الغلول.

قال المُلاَّ القاري: " فَفِيهِ رَدٌّ لِكَلَامِهِمُ الْمَفْهُومِ مِنْهُ الْجَزْمُ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ سَابِقَةِ عُقُوبَةٍ. وَقَالَ الطِّيبِيُّ، قَوْلُهُ: إِنَّ الشَّمْلَةَ إِلَخْ. جَوَابٌ عَنْ قَوْلِهِمْ هَنِيئًا لَهُ الْجَنَّةُ مُشْعِرٌ بِأَنَّهُمْ قَطَعُوا عَلَى أَنَّهُ الْآنَ فِي الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُ فِيهَا، وَأَدْخَلَ (كَلَّا) لِيَكُونَ رَدْعًا لِحُكْمِهِمْ وَإِثْبَاتًا لِمَا بَعْدَهُ، وَيَنْصُرُهُ الرِّوَايَةُ الْأُخْرَى: **(إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ)**، وَقَوْلُهُ: **(نَارًا)** تَمْيِيزٌ، وَفِيهِ مُبَالَغَةٌ أَيِ: الشَّمْلَةُ اشْتَعَلَتْ وَصَارَتْ بِجُمْلَتِهَا نَارًا. كَقَوْلِهِ تَعَالَى **{وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}** [مريم: ٤].... وَفِيهِ تَهْدِيدٌ عَظِيمٌ وَوَعِيدٌ جَسِيمٌ فِي حَقِّ مَنْ يَأْكُلُ مِنَ الْمَالِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهِ حَقُّ جَمْعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَمَالِ الْأَوْقَافِ وَكَمَالِ بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنَّ التَّوْبَةَ مَعَ الِاسْتِحْلَالِ، أَوْ رَدَّ حُقُوقِ الْعَامَّةِ مُتَعَذِّرٌ، أَوْ مُتَعَسِّرٌ. قَالَ النَّوَوِيُّ: فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى الْمُعَاقَبَةِ بِهِمَا إِمَّا بِنَفْسِهِمَا أَيْ: يُغْلَى بِهِمَا وَهُمَا مِنْ نَارٍ، أَوْ هُمَا سَبَبَانِ لِعَذَابِ النَّارِ، وَفِيهِ غِلَظُ تَحْرِيمِ الْغُلُولِ، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ فِي التَّحْرِيمِ حَتَّى الشِّرَاكِ، وَأَنَّ الْغُلُولَ يَمْنَعُ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الشَّهَادَةِ عَلَى مَنْ غَلَّ " [(١)].

فردُّه وجوابُه ﷺ، فاجَأَ الصحابة وأثارهم وشدَّ انتباههم لمعرفة الأَوْلى في مثل هذه الحالة.. وقوله ﷺ : **(بل...)** " إضراب عن ظاهر الجواب وإثبات لنقيضه الذي هو أبلغ، أو استعارة في موضع النفي استعارة النقيض للنقيض" [(٢)].

(١) مرقاة المفاتيح٦/٢٥٨٢.

(٢) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، للكوراني ٧/٢٥٧. تحقيق: أحمد عزو عناية.

إن الرسول ﷺ عندما أبطل تزكية الصحابة لـ(مدعم) ونهاهم عن الاسترسال فيها، أثار ذلك استغراب الصحابة وتعجبهم، ومن شأن الكلام في مثل هذه المقامات- المراد فيها عكس ما يرى المخاطب وقلب اعتقاده حيال أمر كلية – أن يُقَوَّى له الأسلوب ويُؤَكَّد؛ ليَثْبُتَ عكس المعتقد في النفس بآكد طريقة؛ ولهذا اعترض ﷺ بجملة القسم: **(والذي نفسي بيده)** بين حرف الإضراب والإبطال: **(بل)** وبين الجملة التي تثبت عكس ما يعتقد المخاطبون، والغرض من هذا الاعتراض هو تأكيد كلام الرسول ﷺ، وبيان عظم المقسم عليه وأهميته، وأنه ليس بالشيء الهين الذي قد يستهان به كما يتراءى لبعض الناس.

وقد وظف الرسول ﷺ عناصر النظم لخدمة الغرض والمقام، فبعد أن اعترض ﷺ بجملة القسم **(والذي نفسي بيده)** تعظيما وتأكيدا للمقسم عليه، أضاف إلى الاعتراض مؤكدات أخرى منها: إنَّ واسمية الجملة في قوله: **(إن الشملة التي أصابها يوم خيبر)**، ولام التأكيد الواقعة في خبر **(إن)**، وذلك في قوله: **(لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ)**، وتنكير **(نارا)**، وما توحى به من كونها نارا عظيمة.. ولا شك أن هذه المؤكدات أبانت عن غرض الرسول ﷺ وساعدت في الترهيب من الغلول والتحذير منه؛ ولعل هذا ما دفع رجلا حين سمع ذلك من النبي ﷺ أن يجيء بشراك أو شراكين قد أصابهما من المغانم، وكأن الترهيب قد بلغ موقعه من النفوس، فدفعها إلى الانتهاء عما حرَّم الله ورسوله.

وهكذا ترى أن الرسول ﷺ انتهز فرصة الحوار ليرشد المخاطبين إلى أمر في غاية الخطورة، وهو النهي عن القطع بالكرامة والجنة لمن مات دون أن يكون معه نص أو دليل شرعي، سيما وأن هذا الحكم من الغيبيات التي يتوقف القطع فيها على سند أو دليل، وفي هذا سدٌّ لباب من أبواب المغالاة التي تدفع البعض

إلى الحكم على هذا بالجنة، وذاك بالنار حملا على الظاهر، فضلا عما في ذلك من الجرأة على الله تعالى حيث إنه اختص نفسه بالغيب.. وهذا ما أكده القسطلاني، فقال: " وفي الحديث أنه لا يُجْزَم في أحد بأنه من أهل الجنة إلا إنْ نصَّ عليه الشارع كالعَشَرَة، لا سيما والإخلاص أمر قلبي لا يُطَّلَعُ عليه" [1].

تصحيح فهم المخاطب لِلكِبْر

روى مسلم في صحيحه " **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»** [2]

لمَّا حذَّر الرسول ﷺ من خطورة عاقبة الكبر، وقال: **(لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ)**؛ ظَنَّ بعض الصحابة أنه داخل في جملة من يشملهم هذا الترهيب والتحذير؛ جرياً على ما جَبُل عليه بعض الناس من انتقاء الملبس، واتخاذ الزينة، والاهتمام بالشكل والهيئة، فقال: **(إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً)**.

وهنا أراد النبي ﷺ أن ينتهز هذا الحوار ليُصَحّح هذا الفهم الخاطئ لمفهوم الكبر؛ فقال: **(إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ)**، " أي: ليس ذلك من الكبر إذا لم يكن على وجه الفخر والخيلاء والمباهاة بل على سبيل إظهار نعمة الله امتثالاً لقوله تعالى: **{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}** (الضحى: ١١)" [3].

---

(١) إرشاد الساري للقسطلاني ٣٧٧/٢.

(٢) صحيح مسلم ٩٣/١ حديث (٩١).

(٣) دليل الفالحين ٦٨/٥.

ثم ردَّ ثانيا شارحا وموضحا ومؤكدا لمفهوم الكبر الموجب للحرمان من الجنة، فقال: (**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**)، أي: هُوَ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَنْ الْحَقِّ فَلَا يَرَاهُ حَقًّا، وَقِيلَ هُوَ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَنْ الْحَقِّ فَلَا يَقْبَلَهُ، وَقَالَ النَّوَوِيُّ: مَعْنَاهُ الِارْتِفَاعُ عَنْ النَّاسِ واحْتِقَارُهُمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ، وَدَفْعُ الْحَقِّ، وَإِنْكَارُهُ تَرَفُّعًا وَتَجَبُّرًا. (١).

ومن بلاغة الأسلوب الحكيم أن الرسول ﷺ أكد جملة الخطاب: (**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**)؛ مراعاةً لحال المخاطب التي تعتقد أن الزينة في الثياب والهيئة من الكبر الموجب للحرمان من الجنة، وتأكيداً لنفي المفهوم المتوهم للكبر، وطمأنةً للمخاطب، فـ (**اللَّه جَمِيلٌ**) أَيْ: لَهُ الْجَمَالُ الْمُطْلَقُ، جَمَالُ الذَّاتِ وَجَمَالُ الصِّفَاتِ وَجَمَالُ الْأَفْعَالِ، يُحِبُّ الْجَمَالَ أَيِ التَّجَمُّلَ مِنْكُمْ فِي الْهَيْئَةِ، وفي الثياب، والنعل، والبدن ؛ لأن التجمل يجذب القلوب إلى الإنسان، ويحببه إلى الناس، بخلاف التشوه الذي يكون فيه الإنسان قبيحاً. (٢)

بينما نلحظ أنه ﷺ لم يؤكد الجملة الثانية: (**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**)؛ لأن المخاطب خالي الذهن ولا يعرف المفهوم الصحيح للكبر الموجب للنار.

ولا يخفي أن تصدير الجواب الحكيم بجملة: (**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ**) وتقديمها على الجملة الثانية: (**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**)؛ فيه تعجيل بالمسرة والبشارة؛ إشفاقاً على حال المخاطب ونفسيته الفزعة من خطورة الوقوع في عقوبة الكبر، وطمأنة له بأن ما يحبه المسلم من حسن في الثياب والنعل والهيئة يحبه الله كذلك.

وفصل جملة: (**الكبر بطر الحق....**) عن جملة: (**إن الله جميل...**)؛ لما

(١) ينظر: شرح النووي ٢/٩٠، وسبل السلام ٢/٦٨٠

(٢) ينظر: تحفة الأحوذي ٦/١١٦، وشرح رياض الصالحين لمحمد بن صالح العثيمين ٣/٥٤٢

بينهما من شبه كمال الاتصال؛ حيث إن الجملة الثانية وقعت جوابا لسؤال أثارته الأولى في نفس المخاطب، وتقديره: فما الكبر إذن؟ فجاء الجواب المُصَحِّحُ: **(الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ)**

دفع الهَم والحَزَن ببيان عظم الأجر والثواب المترتب على مصيبة فَقْد الولد.

روى البخاري في الأدب المفرد، ومسلم في صحيحه " **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ امْرَأَةً أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِصَبِيٍّ فَقَالَتِ: ادْعُ لَهُ، فَقَدْ دَفَنْتُ ثَلَاثَةً، فَقَالَ: «لَقَد احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ شَدِيدٍ مِنَ النَّارِ»** (١).

عجباً لأمر المؤمن، كله خير.. ففي هذا الحوار طلبت المرأة من النبي ﷺ الدعاء لصبيها الصغير الذي مات، شاكية مصيبتها وابتلاءها في فَقْد أولادها: **(فَقَدْ دَفَنْتُ ثَلَاثَةً)**، فأراد النبي ﷺ أن ينتهز فرصة هذا الحوار، ويُغَيِّر مفهومها عن المصيبة والبلاء، فبشَّرها أنّ حالَها حالُ فضل وخير لا حرمان وشر، وذلك من خلال بيان عظم الثواب المترتب على فقد الأولاد، فقال بأسلوب الحكيم المُبَشِّر: **(لَقَد احْتَظَرْتِ بِحِظَارٍ شَدِيدٍ مِنَ النَّارِ)**.

قال النووي: " أَيْ امْتَنَعْتِ واحْتَمَيْتِ مِنْهَا بِحِمىً عَظِيمٍ يَقِيكِ حَرَّهَا، وَيُؤَمِّنُكِ دُخُولَهَا، وَأَصْلُ الْحَظْرِ: الْمَنْعُ وَأَصْلُ الْحِظَارِ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا: مَا يُجْعَلُ حَوْلَ الْبُسْتَانِ وَغَيْرِهِ مِنْ قُضْبَانٍ وغيرها كالحائط، وفي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِ أَطْفَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّةِ. (٢).

إن التعجيل بالبشارة وبيانَ الأجر المترتب على مصيبة فقد الأم لأولادها؛ حوَّل نفسيتها وحالها من شاكية فزعة إلى مستبشرة فرحة، وهذا ما أثاره الأسلوب

(١) الأدب المفرد للبخاري ص٦٣ حديث (١٤٤)، وصحيح مسلم ٢٠٣٠/٤ حديث (٢٦٣٦).

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم ١٨٣/١٦، وحاشية السيوطي على سنن النسائي ٢٦/٤.

الحكيم الذي وظفه البليغ ﷺ توظيفا ناسب المقام والحال. وأعان على ذلك تأكيد جملة الأسلوب الحكيم بعدة مؤكدات، تدلل على أن فَقْدَ الأولاد حمايةٌ ومَنَعَةٌ لها من النار، لا هَمٌ وحَزَنٌ يستوجب الفزع والجزع.. ولعل هذا التوظيف المناسب للأسلوب الحكيم؛ أمارة على أثره وتأثيره في نفوس المخاطبين، وإذا كان في بعض المواضع يغير في المفاهيم، فإنه هنا يغير في النفوس والمشاعر والأحاسيس.

تم بحمد الله وتوفيقه

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من خُتِمَتْ به النبوات والرسالات، وعلى آله وصحبه أهل البر والخيرات.

وبعـــد ،،،

فمن خلال هذه الجولة المتأنية التي عايشتها الدراسة في رحاب البيان النبوي الشريف؛ بُغيَة الوقوف على بلاغة الرسول ﷺ في انتهاز الفرصة المواتية، بشتى صورها وأنواعها؛ تكشفت للدراسة عدة نتائج منها:

أولاً: ورد مصطلح (**انتهاز الفرصة**) عند الجاحظ، وأبي هلال العسكري، وغيرهما، باعتباره أحد مفاهيم البلاغة وتعريفاتها التى حُدَّتْ بها.. وقد أورد أبوهلال العسكري عدة أمثلة لانتهاز الفرصة؛ لكنه ضيَّق مفهومها، حيث استعملها بمعناها اللغوي، وهو المبادرة والمسارعة إلى الجواب المُفحم أو المُسْكت، وقصرها على صورة واحدة من صور انتهاز الفرصة وهي ما عُرِفَ عند البلاغيين المتأخرين بـ (**الأسلوب الحكيم**) **أو** (**الأجوبة المسكتة**)، بل إن الشواهد التي أوردها تدور حول نوع واحد من أنواع الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب.

ثانياً: استخدم الرسول ﷺ (انتهاز الفرصة) باعتبارها وسيلة تعليمية، وأداة بيانية ناجعة؛ لتوضيح المعاني وتقريرها وتثبيتها في أذهان المخاطبين، بطريقة بليغة تجمع بين التأثير والإقناع، والإفادة والإمتاع.

ثالثا: حقق الرسول ﷺ من خلال (انتهاز الفرصة) أهدافاً معرفية وتربوية تتعلق بأمور الدين والدنيا، ترغيباً أو ترهيباً، ونصحاً وإرشاداً، وتقويما وتصحيحاً.

رابعاً: تعددت صور (انتهاز الفرصة) ومجالاتها في البيان النبوي، فشملت كثيراً من معطيات البيئة، كالإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد.. كما أنها شملت الأحداث والمواقف والمناسبات سواءً كانت فردية أو جماعية.. وقد شملت صور انتهاز الفرصة بعضاً من أنواع السؤال والجواب والحوار الوارد في الأسلوب الحكيم. كما أن الفرصة تنوعت بواعثها، فتارة تكون الفرصة نابعة من

اصطناع حدث أو موقف من جانبه ﷺ ابتداءً، وتارة تكون موقفاً أو مناسبة وقعت عَرَضَاً، وتارة تكون بالنظر في أشياء ساكنة صامتة لا تعلق لها بموقف أو حدث.

خامساً: اتسم (انتهاز الفرصة) في البيان النبوي بعدة خصائص،منها:

١. زيادة البيان والتوضيح والتقرير، وذلك من خلال تصوير المعاني الذهنية في صورة حسية مشاهدة، وإشراك الحس مع العقل في إدراك المعاني عن طريق التمثيل، وبهذا يكون البيان النبوي قد جمع بين صورتين من صور الإبانة عن المعنى في سياق واحد وغرض واحد؛ وهذا أدعى إلى التقرير والتوضيح والتثبيت في الأذهان.

٢. البراعة والتلطف في الربط بين الفرصة المُنْتَهَزَة والمعنى المراد تأكيده، وذلك من خلال عدة أساليب بلاغية جاءت بمثابة التمهيد والتوطئة للمعنى المراد تقريره، مثل أساليب التشويق والتنبيه ولفت النظر كالنداء والاستفهام وغيرهما، ومثل الجمع بين البيان الفعلي المتمثل في الحركات والإشارات وبين البيان القولي. وهذا المسلك هيّأ المخاطب وأعدّه نفسياً وذهنياً لتلقي المعنى المراد.. وقد تنوعت أساليب الربط كثرة وقلة حسب خطورة المعنى وأهميته، وكان من خصائص صنعته ﷺ تصعيد وسائل التهيئة والتشويق مع المعاني المهمة.

٣. التناسب والتلاؤم بين المعنى المراد تقريره، وبين الفرصة المُنْتَهَزَة.. وهذه الخصوصية تطرد وتستوعب كل شواهد هذا الباب.. فلبيان تأكيد رؤية الله تعالى في الآخرة؛ ربط ذلك ومثّله برؤية القمر ليلة أربع عشرة.. ولبيان أثر الذكر في محو الذنوب؛ ربط ذلك ومثّله بشجرة يابسة الورق ضربها ﷺ بعصاه فتناثر منها

الورق... وهكذا في كل الشواهد تجد تناسباً وتلاؤما عجيباً لا تملك معه إلا التسليم والإقرار بعلو بيانه ﷺ، وتأثيره العميق في نفوس المخاطبين.

٤. السرعة والمبادرة في انتهاز الفرصة المواتية.. وهذا يدل على حضور ذهنه ﷺ، وسرعة بديهته، وإخلاصه لدعوته، وحرصه على التأثير في المخاطبين وتعليمهم وتزكيتهم بما ينفعهم.

٥. كثرة الصور التشبيهية؛ لما لها من ارتباط وثيق بتشبيه مماثل، وكان هذا الأسلوب هو عماد انتهاز الفرصة في كثير من الشواهد.

وفي الختام: أسأل الله أن ينفع بهذا البحث، وأن يكتب له القبول، وأن يجزي قارئه، وصاحبه خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨م.

٢. الأدب المفرد للبخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٩م.

٣. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية،

مصر، الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ.

٤. أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، ط/ دار المدني بجدة، ط أولى ١٩٩١م.

٥. البلاغة النبوية دراسة وتحليل، د/ صباح دراز، مخطوط في كلية اللغة العربية بالقاهرة- دكتوراه- برقم (١١٤٠).

٦. البيان النبوي، د/ محمد رجب البيومي، ط/ دار الوفاء بالمنصورة، طبعة أولى ٢٠٠٥م.

٧. البيان والتبيين للجاحظ، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣ هـ.

٨. تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري، الناشر: المكتب الاسلامي، مؤسسة الإشراق، الطبعة الثانية١٩٩٩م.

٩. التَّحبير لإيضَاح مَعَاني التَّيسير للأمير الصنعاني، تحقيق: محمد صبحي، الناشر: مَكتَبَةُ الرُّشد، الرياض، الطبعة: الأولى٢٠١٢ م

١٠. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١١. التصوير البياني، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبه١٩٩٧م.

١٢. التصوير الفني في الحديث النبوي، د/ محمد الصباغ، ط/ المكتب الإسلامي، ط أولى١٩٨٨م.

١٣. التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف، د/ علي صبح، ط/ المكتبة الأزهرية للتراث ٢٠٠٢م.

١٤. التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِعِ الصَّغِيرِ للصنعاني، تحقيق: د. محمَّد إسحاق، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

١٥. التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، ط/ دار النوادر، دمشق٢٠٠٨م.

١٦. تيسير العلام شرح عمدة الأحكام لعبد الله البسام، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الناشر: مكتبة الصحابة، الإمارات - مكتبة التابعين، القاهرة، الطبعة: العاشرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

١٧. جودة الخطاب التربوي في السنة النبوية، د/محمود خليل أبو دف، بحث مقدم لمؤتمر المعلم الفلسطيني، جامعة الأقصى، غزة، كلية التربية عام٢٠٠٨م.
١٨. حاشية السندي على سنن ابن ماجة، المسماة: كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه، طبعة: دار الجيل، بيروت، الطبعة – الثانية.
١٩. حاشية السيوطي على سنن النسائي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦م.
٢٠. الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، د/ عز الدين السيد، دار اقرأ، ط (١) ١٩٨٤م.
٢١. خصائص التراكيب، د/ أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبه، الطبعة السابعة.
٢٢. الخطاب النبوي خريطة البيان العربي، دراسة في اللسانيات النفسية والاجتماعية، د/ غريب محمد عيد، ط/دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١ عام٢٠١٥م.
٢٣. دلائل الإعجاز للجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
٢٤. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان، تحقيق: خليل مأمون شيحا، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
٢٥. سبل السلام للصنعاني، الناشر: دار الحديث، الطبعة: الأولى، بدون تاريخ.
٢٦. سنن ابن ماجة تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي.
٢٧. سنن الترمذي (الجامع الكبير) تحقيق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨م.
٢٨. السنن الكبرى للنسائي، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٢٩. شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبه ٢٠٠١م.
٣٠. شرح سنن أبي داود، للعيني، تحقيق: أبو المنذر المصري، الناشر: مكتبة الرشد –

الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.

٣١. شرح سنن النسائي المسمى «ذخيرة العقبى في شرح المجتبى». لمحمد الإثيوبي الوَلَّوِي، الناشر: دار المعراج الدولية للنشر.

٣٢. شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر، دار النشر: مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

٣٣. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

٣٤. شرح مشكل الآثار للطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط/ مؤسسة الرسالة١٤١٥هـ.

٣٥. شرح مصابيح السنة للإمام البغوي، لابن المَلَك، تحقيق: لجنة مختصة من المحققين، الناشر: إدارة الثقافة الإسلامية، الطبعة: الأولى، ٢٠١٢م.

٣٦. شرح النووي (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية ١٣٩٢هـ.

٣٧. صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، تحقيق: محمد زهير الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٨. صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣٩. العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ط/دار الكتب العلمية، بيروت١٤٠٤هـ.

٤٠. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٤١. غريب الحديث للخطابي، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي، ط/ دار الفكر،

دمشق،١٩٨٢م.

٤٢. فتح الباري لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩.هـ.

٤٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب، تحقيق: محمود شعبان، وآخرين، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية – المدينة النبوية، الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م

٤٤. فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.

٤٥. قراءة في الأدب القديم، د/ محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة.

٤٦. قوت المغتذي على جامع الترمذي، للسيوطي، تحقيق: ناصر الغريبي، دكتوراة، جامعة أم القري عام١٤٢٤هـ.

٤٧. كشف المشكل من حديث الصحيحين، للجوزي، تحقيق: علي حسين البواب. الناشر: دار الوطن – الرياض، بدون تاريخ.

٤٨. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري للكرماني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، طبعة أولى: ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م.

٤٩. الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، للكوراني، تحقيق: أحمد عزو عناية، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

٥٠. كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري للشنقيطي، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط أولى ١٩٩٥م.

٥١. لسان العرب لابن منظور، الناشر: دار صادر–بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

٥٢. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمُبَارَكْفُوري، الناشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية–الهند، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

٥٣. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا الهروي القاري، الناشر: دار الفكر،

بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

٥٤. المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت،١٩٩٨م.

٥٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٥٦. مفتاح العلوم للسكاكي، تحقيق: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٥٧. مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، ط/ دار الفكر ١٩٧٩م.

٥٨. معالم السنن للخطابي، الناشر: المطبعة العلمية – حلب، الطبعة: الأولى ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م.

٥٩. نيل الأوطار للشوكاني، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

ملخص البحث باللغة العربية

إن محمداً ﷺ أبلغُ داعية عرفته البشرية، وأعظمُ مُعَلّمٍ مَلَكَ وسائل التعليم والبيان التي تناسب أحوال المخاطبين، إقناعاً وتأثيرا، وتقريرا وتمكينا، وتوضيحا وتبيينا.

وإن انتهاز الفرصة المواتية، وتوظيف الأحداث والمواقف واستثمارها لمن أقوى الأساليب التعليمية والتربوية التي تخاطب العقل والوجدان معاً، والتي تجمع بين المعاني المجردة والصور الحسية المشاهدة؛ فيتأكد المعنى ويتقرر في أذهان المخاطبين بطريقة بليغة تجمع بين التأثير والإقناع، والإفادة والإمتاع.

ومن هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة، وعنوانها: **(بلاغة الرسول ﷺ في انتهاز الفرصة)**؛ بهدف إبراز بلاغته ﷺ في توظيف مقومات البيئة المحيطة، واستثمار الأحداث والمواقف؛ لتوضيح المعاني وتقريرها وتثبيتها في أذهان المخاطبين، ولتحقيق أقصى درجات التواصل

الفكري والوجداني الذي يحقق التأثير والإقناع دون تكلف أوشطط.

كما تهدف الدراسة إلى رصد صور انتهاز الفرصة في البيان النبوي، والتركيز على بيان المسلك البياني والأساليب المستخدمة في الربط بين الفرصة المنتهزة والمعنى المراد، وكيف حققت المعانى المقررة أهدافاً تربوية سامية، تسعى إلى إقرار منهج حياة، أو تقويم سلوك معوج..

وقد آثرت الدراسةُ اختيارَ مصطلح (**انتهاز الفرصة**) رغم ما يُوهم به ظاهره من إيحاءٍ لا يتناسب مع شرف البيان النبوي؛ إيماناً واقتناعاً بأصالة هذا المصطلح في التراث اللغوي والبلاغي، وتمسكاً بمصطلحات السلف، وهروباً من تبعية الحداثيين الزائفة ومصطلحاتهم الوافدة.. فقد أورد الجاحظ، وأبو هلال العسكري، وغيرهما، أنه " قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، **وانتهاز الفرصة**، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، **والمعرفة بمواضع الفرصة**."

والله أسأل أنَّ يجعل هذا الجهد في ميزان حسنات صاحبه، وموازيين حسنات القراء أجمعين، وأن يكون حجة لنا جميعًا لا حجة علينا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

Abstract

Prophet Muhammad, peace be upon him, is the most eloquent preacher known to mankind and the greatest teacher, who mastered the means of teaching and expression which suite the audience, in terms of convincing, influencing, empowering, clarification and illustration.

Taking advantage of the opportunity, employing and investing events and attitudes are powerful educational and pedagogical methods that address the mind and soul together. They combine abstract meanings and figurative language, which help stress and ingrain the meaning in the minds of the audience in an eloquent way combining influence and persuasion, benefit and enjoyment.

In this sense, this study is titled: **"Eloquence of Prophet (PBUH) in Seizing the Opportunity**", with the aim of highlighting his eloquence, PBUH , in employing the surroundings, investing events and attitudes to clarify and ingrain meanings in the minds of the addressees, with the aim of maximizing the intellectual and emotional communication to achieve the

desired effect and persuasion without affectation or extravagance.

Moreover, the study aims to examine instances of seizing the opportunity in the prophetic style, focusing on the style and methods used to establish a link between the opportunity seized and the intended meaning, and how the intended meanings achieved lofty educational goals, which seek to establish a life approach or modify an improper behavior.

The study chooses the term (**seizing opportunity**), despite the fact that its ostensible meaning could have inappropriate connotations with the honour of the prophetic style, because we believe in the authenticity of the term in the linguistic and rhetorical heritage, adhere to the terms of the righteous forefathers, and to avoid the false dependence of the modernists and their foreign terms. Al-Jahiz and Abu Hilal Al-Askari, among others, stated that "Al Hendi was asked: what is rhetoric? He said: Clarity of meaning, seizing opportunity, and good reference. Some Indians said: True rhetoric is having compelling argument and knowing where opportunities lie".

I pray to Allah that this effort be added in the righteous deeds of the writer and all the readers.

Finally, praise be to Allah, Lord of the Worlds. Peace be upon our prophet Muhammad and his family and companions.